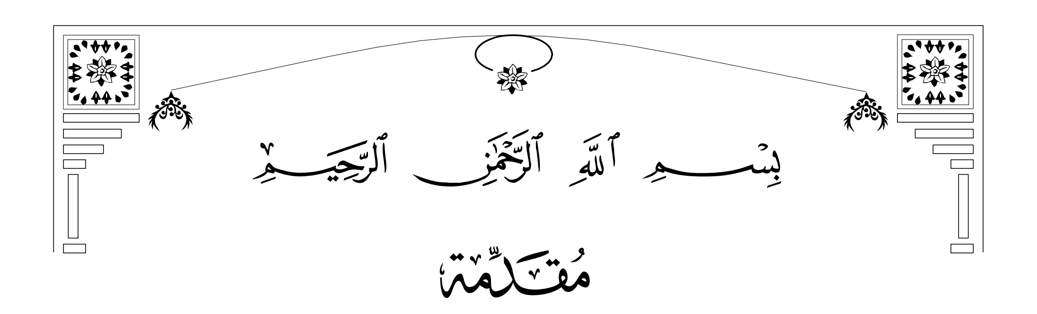
الذوق واللياقة

ويليه

رسالة إلى أخي المتكبر

كتبه

إسلام محمود دربالة



مُقَدِّمَة

الذوق واللياقة تسمية حادثة، ومفهومٌ معاصر، قد يقصد به الأدب والأخلاق أحيانًا، وقد يقصد به ما يزيد عن الأخلاق والآداب، فبين الأدب والأخلاق والذوق واللياقة تداخلٌ وعموم وخصوص.

والذوق من التذوق، وهو: أن يتذوق الإنسان فعله ومقاله وسائر تصرفاته، واللياقة مأخوذة مما يليق أو لا يليق، ويقال هذا شيء لائق - أي: سائغ ومتناسب أو غير لائق -.

وقد أذكر هنا بعض ما هو من الآداب والأخلاق الأساسية، وقد أذكر ما هو من الذوق واللياقة من الأمور الزائدة على الآداب والأخلاق الأساسية، فهو من المكملات أو من دقائق الآداب.

وقد يكون لما أسميه ذوقًا ولياقة دليلٌ واضحٌ وصريح من الكتاب والسنة، وقد يكون مستند ذلك العادات الجارية المعتبرة، فالإسلام لم يأتِ بهدم العادات التي لا تخالف الكتاب والسنة؛ بل جاء بإقرار مكارم الأخلاق التي كانت في الجاهلية، وإقرار العادات الحميدة التي سبقت الإسلام.

بل في العبادات جاء الإسلام بإقرار بعض ما هو من شرع مَنْ قبلنا.

وللأسف فإننا نجد اليوم من يضرب بالعادات والتقاليد عُرض الحائط، إذا لم يجد نصًا واضحًا صريحًا تندرج تحته أو تستند إليه، أو قد لا يصل فقهه إلى إلحاق فرع بأصل تندرج تحته هذه العادات أو التقاليد.

فمثلًا: ما الذي يمنع من أن تقول لمن هو أكبر سنًا أو في مكانة اجتماعية عالية: «حضرتك»، أو حتى من باب تأليف القلوب.

أو أن تقول: يا «أستاذ فلان»، أو «يا عم فلان».

كل هذه الألفاظ قد تجد لبعضها دليلًا تندرج تحته، وقد لا تجد، ولكنك تجد لها ما تستأنس به من آثار الصحابة والتابعين، أو ما تندرج تحته من القواعد الكلية للدين.

ورد عن النبي ﷺ أنه قال للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[1]، يقصد سعد بن معاذ.

وورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم».

وورد من القواعد الكلية احترام الكبير، ودليلها: «**ليس مِنَّا من لم يوقر كبيرنا، ويعْرِف لِعَالِمَنا حقَّه**»[2].

ونجد من بعض من لا يعبأ بالعادات والتقاليد التي لا تخالف الشرع ويهدرها كلية ويضرب بها عرض الحائط؛ لأنها لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة، فيورث في نفوس الناس بغضًا، لا لشيء إلا أنه يجد في نفسه نفرة من

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

العادات والتقاليد التي فيها ما هو فاسد أو مخالف للشرع؛ لكنه يضرب بها كلها عُرض الحائط، حسنها وفاسدها على السواء.

وقلَّ أن تجد عادة حسنة إلا ولها دليلٌ تندرج تحته، أو قاعدة كلية شرعية معتبرة، بل من قواعد أهل العلم في علم القواعد الفقهية قاعدة: العادة محكمة.

المقصود: أن بعض الناس قد يضربون بالعادات القويمة، والتي لا تعارض التدين أو تعارض صريح الدين، ويقعون في صراعات مع المجتمع هم في غناء عنها؛ بل قد ينفرون الناس منهم، فدينُنَا قد جاء بنصوص واضحة من الكتاب والسنة، وجاء بقواعد كلية، وأوامر شرعية، وجاء باحترام شرع من قبلنا مالم يعارض شرعنا، فمن القواعد الفقهية: العادة مُحَكَّمة، ولا ضرر ولا ضرار، والضرر يزال؛ بل من مقاصد الشريعة: حفظ العقل، والمال، والنفس، والدين، والعرض.

فهذه دعوة للتمسك بآداب الإسلام، والعادات المجتمعية التي لا تعارض شريعة رب البرية، ودعوة إلى تصفية القلوب، وتزكية النفوس، وتطهير الأخلاق، ومراعاة العادات القويمة غير المخالفة للشريعة السَنِية.

كيف لا والآداب والأخلاق تكاد تمثل قدرًا كبيرًا من ديننا، وفي الحديث: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]، وقد صنف علماء الإسلام كمًّا كبيرًا من المؤلفات التي تشغل حيزًا عريضًا من تراثنا

(١) رواه أحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد»، وحسنه الألباني في «الصحيحة».

الإسلامي، ومن ذلك: «الآداب الشرعية» - للإمام ابن مفلح الحنبلي، «منظومة الآداب» - للإمام ابن عبد القوي، وشرحها «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للإمام السفاريني، «أدب الدنيا والدين» -للإمام الماوردي، «مكارم الأخلاق ومعاليها» - للخرائطي، «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» - للإمام ابن حبان، «أخلاق العلماء» للإمام الآجري، «الذريعة إلى مكارم الشريعة» - للإمام الراغب الأصفهاني، فضائل الأعمال - للإمام عبد الغني المقدسي، «رياض الصالحين» - للإمام النووي، «جامع بيان العلم وفضله» - للإمام ابن عبد البر، «الجامع في آداب الشيخ والسامع» - للخطيب البغدادي، «مختصر منهاج القاصدين» - للإمام ابن قدامة المقدسي، «منهاج القاصدين» - للإمام ابن الجوزي.

وغيرها كثير من كتب تراثنا الإسلامي العظيم، فضلاً عن كتب المعاصرين في الآداب والأخلاق أحيلك عليها؛ لتنهل من معينها العذب، لتكن رسالتي هذه التي بين يديك كالمنبة والموقظة إلى أهمية الآداب والأخلاق في حياة المسلمين.

والله العظيم أسأل أن ينفع بها، وأن يجعلها ذخرًا يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

كتبه

إسلام محمود دربالة

إكرام الضيف

يذكر بعض الأفاضل فيقول ذهبت إلى زميل لي في الجامعة أزوره بعد انقطاع سنين وكان لم يتناول طعام الغداء فأحضر غذائه وأخذ يأكل أمامي، ولم يقل لي تفضل كل أو هل تغديت.

فأقول أين هذا المسكين من أمر النبي ﷺ بإطعام الطعام، وأين هو من أمره ﷺ بإكرام الضيف.

هذا الموقف حصل حقيقة ومن رجل ينتسب إلى العلم بدين الله.

وكان يسعه إذا لم يكن الطعام يكفي أن يأكل مستترًا عن الضيف.

السلام بأطراف أصابع اليد

من عادة بعض السفهاء أو بعض المتكبرين إذا صافح بعض الناس يسلم من طرف أصابعه كما يقال وكأنه يسلم بقرف.

فهذا الذي يسلم من أطراف الأصابع ليته ما سلم، بل إن فعله هذا قد يفسر بالتكبر أو القرف أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

والمفترض أن يسلم بكامل راحته برحابة وبشر بل كان النبي ﷺ لا ينزع يده حتى يكون المُسَلَّم من ينزع يده.

التكبر حتى وأنت بين يديّ الله

تصور أنك تأتي تقف في الصف لتصلي بين يدي الله فتلصق رجلك في رجل من إلى جوارك فإذا هو يدفعك بجانب يده حتى لا تلصق رجلك في رجله.

وكأنك قذر من الأقذار أعاذنا الله وإياكم من السفه والكبر، وانظر كيف يصل الأمر بهذا المسكين أن يفعل ذلك وهو يقف بين يدي جبار السماوات والأرض وفي صلاة.

وكيف خالف أوامر رسول الله ﷺ من تسوية الصفوف وسد الفُرج في الصف.

إنهاء مكالمة الهاتف

إذا اتصل بك أحد والحديث جاري فلا تقل له طيب سلام عليكم وتنهي أنت المكالمة ولكن لتجاري أنت المتصل في كلامه حتى يكون هو الذي ينهي المكالمة لأنه هو المتصل.

أما أن تقطع أنت الحديث وتنهي المكالمة وهو لم ينه ما أراد فهذا من قلة الذوق وعدم اللياقة ويمكن أن نستدل لذلك بحديث كان رسول الله ﷺ: «**إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل الذي ينزع**» رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الشيخ الألباني.

نهر الأطفال

المنبغي أن يتلطف الكبير مع الصغير ويعطف عليه وفي الحديث «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا**» أخرجه أحمد والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى البخاري عن أنس: أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي يفعله.

وبعض الناس إذا رأى طفلًا فكأنما رأى شيطانًا.

الفحص والتقصي

لا ينبغي السؤال عن خصوصيات الأشخاص بشكل مباشر مما قد يسبب لهم إحراجًا أو يضطرهم إلى الإخبار عما يكرهون أن يخبروا به من الأمور الخاصة ومن ذلك:

- هل شقتك تمليك أم إيجار؟
- كم راتبك؟
- ما درجة تعليم والدك؟

وهكذا فحص وتقصي في الخصوصيات كل هذا خلاف الذوق واللياقة.

لن أخذ برأيك

يحكى بعض الأفاضل فيقول: كنت في زيارة صديق لي فإذا به يستشيرني في مسألة في عمله هل أفعل ذلك أم لا ، وبعد أن تناقشنا ووضحت له رأيي أفاجأ به يقول أنا في النهاية لن أخذ برأيك وكان يسعه أن يأخذ وجهة نظر من يستشيره دون أن يقذف في وجهه بهذه الكلمة التي تنبئ عن عدم اهتمام أو تسفيه لرأي المستشار أو تقليل من شأنه. . . أنا لن أخذ برأيك.

اعترف وقل الحقيقة

يحكى أحد الأفاضل فيقول: أُثنى عليَّ في مجلس وعلى علمي فقلت: أنا لا أعرف شيئًا -من باب التواضع- فإذا بأحد الحاضرين يندفع ويقول: «أيوا اعترف وقل الحقيقة».

الإقبال بالوجه

ليس من اللياقة أن تتحدث إلى شخص أو تسلم عليه وأنت غير مقبل عليه بالكلية بوجهك.

وفي السنة المطهرة أن النبي ﷺ كان إذا تحدث إلى أحد أقبل عليه بوجهه.

أما الذي يتحدث إلى شخص ويصرف وجهه عنه فهو أشبه بأفعال المتكبرين.

الشخوص بالرأس

وكذلك التحدث إلى الناس وأنت شاخص برأسك إلى أعلى رافعٌ أنفك، أشبه بأفعال المتكبرين وقد يفعله البعض حياءً من النظر في أعين الناس فيختلف الأمر بحسب قرائنه.

التحدث إلى الآخرين وأنت نائم أو متكئ

ليس من الذوق واللياقة أن تتحدث إلى الآخرين وأنت نائم وهم وقوف أو وأنت متكئ لاسيما إذا كان من تحدثه هو أكبر منك سنًا.

ومن ذلك أن يمد الشخص رجله وهو في حضور غيره أو من هم أكبر منه أو حتى من أقرانه إلا من كان له عذر من مرض شديد أو علة ملحة.

الاستئذان ممن يحدثك

عندما تكون تتحدث إلى أحد ويناديك آخر فلا تترك الأول حتى تستأذن من الذي كنت تتحدث معه.

الاستئذان ممن تجالسه

عندما تكون جالسًا مع مجموعة من الأشخاص أو شخص واحد فإذا أردت أن تقوم لفعل شيء أو للانصراف أو دخول دورة المياه أو حتى

لتأتي بشراب للضيف الذي عندك فالذوق واللياقة أن تستأذن قبل أن تقوم.

الهدية

إذا أهدى لك أحد هدية فتقبلها وكافئه إن استطعت فإن لم تجد ما تكافئه به فادع له لكن بعض من لا ذوق عنده ولا لياقة إذا أهدى له طعامٌ مثلًا قال لا شكرًا أنا لا أحب هذا الطعام أو أهدى له ثوب قال لا يعجبني هذا الثوب وإنما كان يسعه أن يأخذ الطعام أو الثوب ويتصدق به أو يهديه إلى غيره فهذا الفعل أكثر ذوقًا وأكثر لياقة.

وكذلك تجد أحدهم لو أهديت له ثوبًا وقابلك بعد فترة قال لك لقد فسد الثوب وتقطعت الخياطة، وما ذنب المُهدي في هذا أم أنها هدية مع ضمان الصيانة.

* من الأفضل أن يكون للهدية مناسبة من المناسبات التي تعارف عليها الناس في مجتمعك.

* اجعلها سلاحك لتليين القلوب القاسية.

* إذا كنت رادًا على هدية سابقة فلا تجعلها مثلها أو بنفس قيمتها ومحتواها.

* راعي ظروف المُهدي إليه وطاقته، ولا تنس أنه سيردها في يوم ما، لذلك اجعلها متناسبة مع ظروفه المادية بحيث لا تؤثر في مادياته وتحرجه.

* ودائمًا لا تنتظر للهدية رد أو مقابل، لأنها عنوان محبة وليست دينًا.

* لا ترفض الهدية طالما أنه ليس هناك ما يمنعها شرعًا أو عُرفًا ، فإن ذلك مما يكسر نفس المهدي ويحزنه .

* اجعل هديتك دائمًا ذات فائدة للمهدى إليه . فأحدهم لا يستطيع أن يشتري شيئًا أساسيًا للمنزل، فلا تهديه أنت تحفة أو لوحة جدارية، بل أهده شيئًا هامًا لمنزله، أو شيئًا ترى أنه بحاجة إليه في حياته .

* قال لي أحدهم عندما أهديته هدية : لو أنك أحضرت بدلًا منها كذا؟ فكسر نفسي وأشعرني بأن هديتي لا قيمة لها عنده . وقال لي آخر : جزاك الله خيرًا ، لقد كلفت على نفسك بهذه الهدية الرائعة ، ولا أعرف كيف أشكرك عليها . . أرأيت كيف يكون منطق بعض الناس كأنه الداء، وكيف يكون منطق بعضهم كأنه البلسم والدواء؟ !

تأكل ولا شبعان؟!

إذا جاءك ضيف وكنت تريد إكرامه بطعام فلا تقل له تأكل ولا شبعان؟ وإنما إن كان عندك طعام بدون تكلف فقدمه وإلا فلا تقل تأكل ولا شبعان ولك في نبي الله إبراهيم أسوة حسنة : ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ .

وضع اليد في الجيب وأنت تتحدث مع الآخرين

ليس من الذوق واللياقة أن تتحدث إلى شخص وأنت تضع يدك في جيب البنطلون فهذا ليس من الذوق ولا من اللياقة ، وإنما تقف وقفة معتدلة ليس فيها ما ينم عن تعالي أو كبر أو عدم مبالاة .

الضحك في الجنازة

ليس من الذوق أو اللياقة أن تضحك في الجنازة أو تتحدث في أمور عامة، أو تعقد الصداقات أو تثير المناقشات الصاخبة بما يتنافى وجلال الموقف ومشاطرة أهل الميت الحزن، ومواساتهم.

* في بعض الجنازات تجد من يتضاحكون وقد يتبادلون النكات أثناء تشييع الجنازة، وقد تجد بعضهم يبتسم ويضحك في أثناء تجهيز الميت.

* وشهدت أحدهم في مجلس عزاء في بيت الميت وهو يثير المناقشات إلى حد ارتفاع الأصوات والتشاغل عما جاء لأجله من المواساة فهذه الأفعال كلها من قلة الذوق واللياقة.

* وأحدهم قلت له إنا لله وإنا إليه راجعون فقال لي لقد عُمر المتوفى حتى جاوز الثمانين، فما علاقة السن بهيبة الوفاة وجلالة الحزن.

* وأحدهم توفيت جدته وهم يدفنونها وهو يتحدث حول أمور زواجه وحفل الزفاف والهدايا التي سيأتي بها أصدقائه في هذه المناسبة.

وقفت يومًا على الطريق انتظر مقدم جنازة من بلد مجاور، وبجواري عدد من الناس ينتظرون لنفس الغرض، منهم مجموعة من الشباب قد انخرطوا في الضحك، فقلت لهم: يا شباب أجئتم تواسون أهل الميت أم جئتم تهنئونهم على موت ابنهم؟! والله إن لم يكن لكم في الموت عبرة ووقفة مع النفس فعظم الله أجركم في نفوسكم وقلوبكم... فسكتوا لفترة من الوقت ثم عادوا لسيرتهم الأولى من الضحك وكأن شيئًا ما كان.

وفي يوم من الأيام وعندما كنا نتبع إحدى الجنائز قابلني أحد المعارف عند المقابر فجعل يحتفي بي ويسألني عن حالي ويظهر لي الترحيب، وأنا أرد عليه في ذلك كله باقتضاب والضيق باد عليّ، والناس في شغل وهذا في شغل، والناس في وادٍ وهذا في وادٍ آخر لا يبالي من ذلك.

سد الشارع بالسيارة

ليس من الذوق واللياقة أن تسد الشارع بسيارتك وتتركها واقفة بحيث لا يستطيع الناس الدخول أو الخروج، وكذلك سد مداخل البيوت والعمارات أو مداخل الجراجات.

وكذلك ليس من الذوق واللياقة أن توقف سيارتك بحيث تمنع سيارة غيرك من الخروج.

وقد تأخر الناس عن أشغالهم أو المرضى الذي يحتاجون إلى إغاثة.

الاتصال في أوقات غير مناسبة

ليس من الذوق واللياقة الاتصال في أوقات غير مناسبة كوقت النوم أو وقت القيلولة أو في وقت متأخر من الليل، فكل هذا فيه إزعاج ومن الإزعاج أيضًا وعدم الذوق واللياقة أن تكثر الأخت الاتصال على أختها أو صديقتها في أوقات تواجد الزوج في البيت فإن ذلك يوغر صدره، ويشتت شمل البيت وقد يسبب الخصومات بين الزوج وزوجته.

فبعض النساء يتصلن في كل ساعة مرة بأختها أو صديقتها وكأنها جالسة مع الزوج وزوجته في المنزل بل إن بعضهن تتحدث إلى صديقتها أكثر مما يتحدث الزوج إلى زوجته. فليكن الاتصال باقتصاد واقتصار على الضروري وفي الأوقات المناسبة.

استخدام أشياء الغير بصورة غير لائقة

من الناس من يستعمل أشياء غيره بصورة غير مناسبة أو لائقة ولو كانت هذه الأشياء له لما استعملها بهذه الصورة.

مثال ذلك أن تطلب من صديق لك جواله لتجري مكالمة لأنك لا تمتلك الرصيد وتمتد هذه المكالمة حتى ترهق رصيد صاحبك وتعيد له الجوال لأن الرصيد نفذ.

أو أن تستعير سيارة صديقك وتعيدها وقد ملأتها بالصدمات ونفذ بنزينها دون أن تشعر بالحرج.

ومن ذلك أيضًا أن تأخذ جوال أو جهاز الحاسب الخاص بصديق لك فتقلب فيه وتفتح ملفاته دون مراعاة لحرمة أو خصوصية.

إزعاج الآخرين باستخدام أشيائك الخاصة

ومن ذلك استخدام السيارة أو الجوال صحيح أنت حر في استخدام ما تملك لكن حريتك تنتهي عند حرية الآخرين.

ومن ذلك استخدام السيارة مثلًا في التفحيط أو التخميس فهذا إضافة إلى ما فيه من إهلاك للسيارة فإن فيه إزعاج للآخرين بالصوت المرتفع وإفزاع لهم على ممتلكاتهم فيمكن أن تصطدم سيارتك بسيارات الآخرين الواقفة أو المتحركة.

وهذا من إفزاع المسلمين وفعلٌ لا يجوز أصلًا.

أو تجد أحدهم يقف في وسط المكاتب الهادئة ويتحدث في جواله بصوت مرتفع ولفترة طويلة دون مراعاة لمشاعر الآخرين.

استخدام المتعلقات الشخصية الخاصة بالآخرين

ومن ذلك استخدام المنشفة الشخصية أو استخدام فرشاة الأسنان أو غيرها من الأدوات الشخصية الخاصة بالآخرين سواء كان ذلك بإذنهم أو غير إذنهم لما لهذه الأشياء من الخصوصية، وإمكانية نقل الأمراض من خلالها.

الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية

تحادثت مع شخصين في قضية هامة من قضايا عصرنا، وانتهينا إلى تمسك كل طرف برأيه، فقلت: يا أخوان اختلافنا في الرأي لا يفسد للود قضية، فربت أحدهما على يدي وقال: هذا شيء طبيعي، وقال الآخر في جفوة وعصبية: هذا إذا كان في الرأي، أي أنه أراد أن يجعلها مشكلة اختلاف كبيرة.

الدفع بالناس إلى الكذب

لا تضيق على محدثك سُبله، فتضطره للكذب من أجل أن يخرج من الحرج، أو كما يقول دايل كارينجي: (لا تحشر الهر في الزاوية) حتى لا ينقلب نمرًا أو أسدًا ضاريًا، ولن تسلم حينها من شره أو أذاه؟

الاعـتـذار

وكذلك لا تضطر غيرك للاعتذار، واقبل عذره إن اعتذر حتى لا تسوقه للكذب الذي يرضيك به، فتكون قد آذيت نفسك بأن اضطررته للكذب، وآذيته بأن جعلته كذابًا.

النصح والنقد

وإذا انتقدك أحد فلتكن روحك رياضية واقبل نصحه، ووضح له وجهة نظرك واجتهادك في هذا الأمر إن كنت مقتنعًا به، ولا تكن أهوج في ردك، فإن أوضح لك خطأ وجهة نظرك فلا تكابر في قبول الحق، وإن لم تقتنع فلا تعيب عليه أنه نصحك أو انتقدك.

الستر على الآخرين

وإن نصحت أحدًا ولم يقبل نصحك فلا تنشر أمره وتفضح سره وتكلم عنه كل أحد، فكل إنسان مُخيرٌ في قبول النصح أو رفضه، اللهم إلا بعض

الحالات الخاصة في المجاهرين وأمثالهم، وهذه تحتاج أيضًا لحكمة وعقل وروية.

حفظ السر

احفظ أسرار الناس ولو كانوا أعداءك، واحذر أن تفشي لأحدهم سرًا إذا استفزك أو أغضبك، أو حتى إذا أفشى لك هو سرًا، فليس من المفترض أن تنحط إذا انحط الآخرون، ومن أفشى أسرار الناس أفشى الله سره وفضحه. أما عن سرك فإذا أردت ألا يُفشى فلا يخرج من صدرك ولا تحدث به نفسك، وإياك ثم إياك وائتمان النساء على الأسرار فإنها فاكهة مجالسهن. وأعلم أنه ندُر في هذا الزمان من تجده يحفظ الأسرار، وهؤلاء هم الصفوة فكن منهم.

لا تفسر كلام الآخرين كما يحلوا لك

تجاذبت أطراف الحديث مع أحد الأصدقاء، وتكلمت بوجهة نظري في الموضوع الذي طرحه، فأخذ مقطوعة من كلامي وفسرها من عنده وكأن ذلك تفسيري لها، فقلت: أبدًا أنا لم أقصد ما تقول، بل أقصد كذا وكذا.. ولكنني لاحظت أنه يردد نفس الكلام في كل موقف يجمعنا مع أي أحد، ويردده بذات تفسيره ناسبًا الكلام لي، وذلك رغم أنني لم أفسره هكذا، ورغم تنبيهي له على ما أقصد، إلا أنه ظل يكرر نفس الكلام. فقررت أنني في كل مجلس يجلس فيه ويكرر نفس الكلام أن اعتبر أنه لا يتكلم ولا أعطي كلامه اهتمام ولا أبدي له في مواضيعه أي

رأي ولا أُشاركه حديثه في أي موضوع، واعتبر أن كل ما يتحدث فيه غير ذي أهمية، وكنت إذا تحدث في أي موضوع انشغلت عنه بأي شيء، وما هي إلا مرات قليلة حتى شعر بمدى خطأه وانتهى عنه.

والحقيقة أن هذا نقص يجب أن يتنزه عنه أهل الأدب والذوق.

انتقاء الألفاظ

قديمًا قالوا الملافظ سعد، حكى بعض الأفاضل قال: كان لدينا في العائلة طفل مريض، وتقررت له عملية جراحية دقيقة وخطيرة، وكنا نعيش في حالة من الحزن والاضطراب الشديد، فقابلني شخص أعرفه وسألني عن حالته، فقلت بخير والحمد لله، فاستفسر مني عن طبيعة حالته، فأخبرته بها، فقال: هذه حالة خطيرة، لا أظن أن هذا الطفل يعيش. ورغم ما رأى على وجهي من استياء لكلامه، إلا أنه ظل يرشقني بهذه الكلمات التي أشبه ما تكون بالصخور العواتي وكأنه شخص منزوع القلب، حتى تمنيت أني ما لقيته ولا عرفته.

إياك والتثبيط

لا تثبط دائمًا من عزائم الناس، ولا تكن صاحب تكذيب ومعارضة لكل خبر سواء كان عندك به علم أم كنت تجهله. واعلم أن التثبيط هو من الإضرار بالناس بل ومن الإضرار بالمجتمع كله.

علمت شخصًا على هذه الشاكلة، فكنت إذا حادثته بالخبر -حتى عن

نفسي- أجد له فيه رأي وتعليق وكلام وتأويل وتكذيب، حتى أن بعض الأحداث والأخبار أكون على يقين بأنه لا يعرف عنها شيء فإذا تحدثت بها بدأ في التعليق بأسلوب يحطم المعنويات والعزائم والهمم.

وشخص آخر كان إذا علم بأن شخصًا مُقدم على مشروع أو عمل ما، ظل يثبط فيه ويحبط من عزيمته، وبدأ برأيه في المشروع الذي يراه غير مُجد -كما هو الحال في جميع المشاريع عنده- وأنه يعرف من جربه وخسر فيه خسارة شديدة.

من أدب المعاملات المالية

جاءني زائرًا وطلب مني اقراضه مبلغًا يحتاجه لضرورة حسب ما أخبرني، فأخبرته بأن المبلغ موجود ولكني سأحتاجه خلال أسبوعين، فقال بأنه لا يحتاجه أكثر من هذه المدة. ومر شهر ولم أحتج المبلغ خلاله، ثم جاءت المناسبة التي كنت أحتفظ لها بالمبلغ، فقابلته وطلبت منه أن يجهز المبلغ خلال يوم أو يومين. وكانت مفاجأة إذ رد عليّ ردًا خاليًا من الذوق وعقب بأن ظروفه لا تسمح أبدًا خلال الفترة القادمة، وصدمني حقًا بهذا الرد المخالف لكل الوعود، وبعد فترة طويلة تعدت العام استطعت أن استخلص المبلغ بالتدريج وذلك بعد أن أخلف المواعيد كثيرًا، ثم جاءني في يوم معتذر يطلب مني أن يبقي المبلغ لفترة أخرى، فرفضت ذلك بكل قوة، ولقنته درسًا في أصول وآداب المعاملات المالية بعدما أشعرني أنني أتسول منه ولست كأنني أنا صاحب الحق. وكانت

المفاجأة أنه ناولني المبلغ ناقص، ووعدني بعد أيام أن يأتيني بالمبلغ المتبقي، وكان عليّ أن اتجرع هذه المواقف الناقصة بكل أسى، وفي الموعد ذهبت إليه فلم أجده وهنا تركت له الرسالة الثانية أو الدرس الثاني في أخلاقيات المعاملات المالية وكانت الرسالة هذه المرة قاسية رغم أنها كانت مهذبة ومختصرة، وبعد ساعات قليلة جاءني يشكو الظروف التي يمر بها في عمله والتي جعلته يخلف مواعيده في السداد، فقلت له: اعلم أنك طالما تسير على هذا الأسلوب في معاملاتك المالية وطالما أنك غير منضبط ماليًا فلن تنفك هذه الأزمات والضوائق أن تواجهك.

الوفاء بالوعد وسداد الدين

ذكر بعض الأفاضل قال: اقترض مني أحد الأصدقاء مبلغًا وفي الموعد المحدد طرق بابي وشكرني وسلمني المبلغ، ثم مرت أيام وجاء يطلب مني نفس المبلغ إن كان يمكنني الاستغناء عنه، فقلت: ولماذا لم تتركه معك حتى يتيسر لك رده؟ فقال: أولًا أنا وعدتك بموعد وما كنت لا خلف الميعاد، فربما تكون قد رتبت له ترتيبًا معينًا، وثانيًا فإنه كان لابد أن أسلمك المبلغ في يدك حتى لا تُجبر على الموافقة لكون المبلغ ما زال معي. ولكم أعجبني هذا الموقف الشريف، وخصوصًا عندما علمت أنه اقترض المبلغ من أجل أن يفي بموعده، فلما وافقت على اقراضه له ثانية أخذه ورده إلى صاحبه.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

كان هناك رجل سخي كريم يحب أن يفك ضوائق الناس من حوله، أو لنقل كان يحب ذلك، نعم فقد تغيرت وجهة نظره لأن هذا السخاء والكرم لم يقابل إلا بالجحود والمماطلة، حتى رأيته يمر بأكبر ضائقة في حياته يقترض من هنا وهناك، رغم أن له مبالغ تفوق أضعاف ما يحتاج إليه عند من كان كريمًا وشهمًا معهم ومن سارع لفك ضوائقهم ومساعدتهم وقت الحاجة، ثم قابلو ذلك بجحود ومماطلة وكذب ونفاق، ولم يتحرك أحد منهم لرد ما اقترضه رغم أن معظمهم من المتيسرين حتى أن أحدهم عمل شيئًا كماليًا لا فائدة له تكلف ما يقارب عشرة أضعاف ما عليه من دين لهذا الشخص. . . وقلت لذلك الرجل يومًا أبشرك -إن شاء الله- بخلف خير ويُسر بعد عُسر فإن الكريم لا يُضام، ولكني أظنك ستفكر ألف مرة بعد ذلك في معاملاتك المالية. فرد عليّ قائلًا: الحقيقة أنني سأفكر بعد ذلك في كل معاملاتي مع الناس، مالية وغير مالية!!

إياك والمماطلة

يحكي بعضهم فيقول: كان لي مبلغًا عند أحد الناس، وحان أجله، فطالبته به لما لم يبادر هو بذلك، فواعدني مرة ومرتين وثلاث، وفي المرة الرابعة رفضت هذه المواعيد الكاذبة وطالبته بتسديد المبلغ في

الحال أو انصرف ولا أعود له أبدًا ، فأخرج المبلغ من جيبه وناوله لي وقال في برود شديد : لا أعرف لماذا هذه العجلة؟

* شخص قرر أن يستقر في بلده ، ولذلك أرسل إلى صديقيه اللذين يشارك أحدهما في المقاولات ويشارك الآخر في تجارته ، ليصفيا حقوقه ، وكان ذلك قبل عودته بشهور حتى يتسنى لهما التصفية على مهل وبدون أن يؤثر على أعمالهما . وعاد الرجل من سفره ليبدأ في الإعداد لمشروع خاص به ، فأما شريك المقاولات فسلمه رأس المال أرجى الأرباح لحين التصفية السنوية ، وأما الآخر فلم يستطع أن يستخلص منه حتى رأس المال ، وماطله وواعده وأخلفه ، وقطّع له المبلغ على دفعات بصورة لا يسعه معها الاستفادة منه في عمل جيد .

الضامن

فوجئ بالشرطة تطلبه وكانت جريمته أنه لم يسدد أقساط السيارة التي عليه . . الأمر شبه طبيعي بالنسبة لك . . ولكن الحقيقة أنه ليس صاحب السيارة بل هو الضامن فيها بحكم الوظيفة والراتب ، وبينما ينعم عديم الذوق بالسيارة فإن الضامن الكريم يؤذي في أقسام الشرطة ، ويضطر لسداد الأقساط من جيبه ، ليقرر أن لا يكون عونًا لأحد بعد ذلك أبدًا ، أما الآخر فلم يبال بأي شيء على الإطلاق ، بل حتى لم يكلف خاطره بالاعتذار ! !

اهتم بالجميع

في الكثير من المناسبات نرى اهتمام أصحاب المناسبة مُنصبًا على شخصيات من الحاضرين بعينها، وربما كانوا من أصحاب الجاه أو المكانة، أو في منزلة اجتماعية رفيعة، أو كبارًا أو علماء أو ذوي شأن ما. ونحن في الحقيقة لا نرفض ذلك، ولكننا نرفض تجاهل الآخرين، فالكل قد حضر يؤدي إليك واجبًا إما مهنئًا أو مواسيًا، وتجاهلهم يُعد أسلوبًا غير لائق على الإطلاق، بينما أن الترحيب بهم يشعرهم بالألفة والمودة والقرب والاهتمام ويزيد في حب الناس لك واهتمامهم بك.

متخصص في الحوادث

واحذر أن تكون صاحب خبر سوء، فتُعرف به، مثال ذلك أن تكون أول من ينقل خبر حادث أو موت أو مصيبة فيتشاءم بك الناس ويكرهوا حديثك ويستعيذوا بالله عند قدومك أو دخولك، وإذا كان لابد وأن تكون ناقل لخبر سوء فكن ممهدًا له بما هو أخف منه، وتدرج في ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ومهما كانت درجة تصَّبر من تنقل له الخبر فإياك وأن تصدمه به مباشرة.

مراعاة مشاعر الآخرين

كثيرًا ما نرى منظرًا غير لائق بالمرة، حيث يكون في القرية أو البلد

أو الحي من أصيب بمصيبة موت أو غيره، ثم نرى بعد يوم أو أكثر من يقوم من جيرانه برفع الزينات والأبواق والأناشيد ابتهاجًا بُعرس أو مناسبة ما، غير مبالٍ أو مراعٍ لشعور والآم جيرانه، ولا يفهم من ذلك أننا نقول بأن يمتنع الناس عن الأفراح والأعراس وغيرها، كلا، بل القصد أن نؤجل هذه المناسبة السعيدة قليلًا، أسبوعين أو أكثر، حسب إمكانية التأجيل، حتى تطيب النفوس، ويا حبذا لو ضيقنا نطاق الحفل بعد ذلك، أو أقمناه في مكان آخر، وكذلك لو استأذناهم في ذلك، فسوف يكون لذلك في نفوسهم أكبر الأثر وأطيبه، وهذا من أقل حقوق جيرانك عليك.

مواساة المرضى ورفع الحالة المعنوية للمريض

* لا تذكر عنده الموت ولا النار، ولا قصص الموت أو حوادثه أو شيء مما تنفر منه النفس.

* نقطة هامة يجب أن تعرفها، وهي أن تحسن الحالة النفسية يقهر أعتى الأمراض بإذن الله. فركز على رفع معنويات المريض.

* لا تظهر التألم أو الشفقة عليه حتى لا ييأس ويقنط ويظن أن حالته شديدة السوء، فيزداد مرضًا.

المساهمة في تكاليف العلاج

* اعتاد أهل مصر على عادة حسنة عند زيارة المرضى، وهي وضع مبلغًا من المال مع دعوة بالشفاء تحت وسادة المريض أو بجواره، وهي في

الحقيقة عادة جميلة تنم عن مدى التعاون والذوق في آن واحد، لأن أهل المريض بحاجة لما يعينهم على تكاليف ونفقة التداوي والعلاج. وتختلف العادة من بيئة لبيئة ومن فئة لأخرى.

الطبيب والمريض

* إذا كنت طبيبًا فاجعل لألفاظك ميزانًا دقيقًا، لأن كلام الناس كلهم في واد وكلامك أنت في واد آخر. فمن الأطباء من تنزل كلماتهم على المرضى كأنها برد وسلام فيشفى بإذن الله بلا دواء، وتزول العلة بلا علاج. ومنهم – أعاذنا الله– من تنزل كلماتهم كالحميم، فيزداد المريض حسرة وعلة، فينتقل من سوء إلى أسوأ ومن بلاء إلى أعظم.

لا تتدخل في ما لا يعنيك

إن بعض الناس بتدخلهم فيما لا يعنيهم يتسببون في كثير من الحرج للناس.

* تقدم أحدهم نحو العريس أثناء الحفل وقال له: إن ملابسك غير متناسقة، فتسبب للرجل في غم شديد في يوم زفافه، أو ليلة العمر كما يقولون. ولو احتفظ هذا العديم الذوق برأيه لنفسه وعلم أنه لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع، لو علم ذلك وفعل هذا لكان في ذلك كل الخير، ولكن هذه شخصيات عُدمت الذوق والأدب، وحق للقائل أن يقول: أقل عليهم مأتمًا وعويلًا.

* ذكر بعض الأفاضل فقال: أحد الشباب كان يجهز عرضًا على جهاز

الكمبيوتر ليقوم بتقديمه في إحدى الاحتفالات الهامة، فدخلت عليه وهو يعمل فيه فاهتممت بمشاهدة فقراته وأظهرت فرحًا وسرورًا، وهنأته على هذا البرنامج الرائع، ورأيت السرور في وجهه بشدة فسألني عن تقديري النسبي للبرنامج، ورغم أنه في الحقيقة لا يتعدى نسبة ٣٠٪ إلا أنني قدرته له ٨٠٪ فاستبشر وفرح، وفي اليوم التالي وجدته قد طور فيه تطويرات رائعة جدًا، ولم أكن أتوقعها، وطلب مني تقديره، فقلت له الآن نستطيع أن نعتبرك مبدعًا وندخلك في دائرة الامتياز الحقيقي، فشكرني كثيرًا على تشجيعي له. وكانت المفاجأة الحقيقية في الحفل إذ رأيت فيه ما لم أره من قبل من الإبداع والابتكار الذي أوصله بالفعل لدرجة الامتياز، واستطعت في خلال أسبوع أن أصنع منه مبتكرًا ولو أنني بخلت عليه بالتشجيع لكنت سببًا في ركوده وثباته، بل وتأخره... وإلى هذا اليوم ما زال هذا الشاب يستبشر بدخولي عليه، ويستشيرني في كل شيء ويحب أن يسمع مني أي شيء.

كسب القلوب

في إحدى حفلات توزيع جوائز مسابقة للأطفال، لاحظت أن الجوائز ذات قيمة عالية، ورغم ذلك حُرم عدد كبير من الأطفال من الفوز بأي جائزة، ولو أن المنظمين خصموا عشرة جنيهات -أو ريالات- فقط من كل جائزة وقدموا بها لعبة لكل طفل حرموه من الفوز، لكان لهذا معنى آخر عند هؤلاء الأطفال وذويهم... إننا نبحث عن كسب القلوب.. وهذه هي رسالة الذوق الكبرى.

إظهار الفرح

بعض الناس يسيرون في حفلات الزواج وكأنهم يودعون جنازة، ولا أدري لماذا لا يترك هؤلاء أحزانهم في بيوتهم أو يعتكفون إلى جوارها هناك، وليتركوا الآخرين يفرحوا فلا ذنب لهم في سوداوية هؤلاء ونكدهم.

الالتزام بالمواعيد

في إحدى حفلات الزواج دُعي مجموعة من الناس من بلد آخر، ونبه عليهم الداعي بأن الموعد في الساعة الثالثة ظهرًا، وكان نظام المنطقة أن يتناول الضيوف الغداء قبل الحفل الذي يبدأ بعد صلاة العصر. وتأخرت هذه المجموعة حتى قبيل المغرب، وانشغل بهم الداعون، واضطر أحد إخوان العريس لأن يأخذهم إلى أحد المطاعم في مدينة قريبة لتقديم وجبة الغداء أو العشاء، لأن طعام الضيوف كان قد انتهى حسب نظام المنطقة ومواعيدها. ولو أنهم التزموا بالموعد المحدد لهم لما وضعوا أصحاب الدعوة في هذا المأزق وشغلوهم عن حفلهم وعريسهم ومشاغلهم.

من آداب الطريق

لا تستوقف أحدًا في الشارع أو الطريق إلا لضرورة، وإذا كان فأوجز، وخصوصًا إذا كان برفقته أو برفقتك أحد. وإذا كنت تسير مع غيرك لقضاء حاجة لأحدكما فحاول ألا تستوقف أحدًا، وإذا استوقفك أحد فاعتذر له،

وكن على ذلك حتى تقضي حاجته أو حاجتك، ولا تتعود طول الوقوف والكلام في الشارع فإن هذا مما يعيب الحازم الفطن.

من آداب التاجر المسلم

دخل أحدهم إلى محل أقمشة وعرض عليه البائع بعض الأنواع التي لم تعجبه، فأراد الانصراف، ولكن البائع صاح فيه وسبه وتطاول عليه لأنه لم يشتر بعد ما عرض عليه كل هذه الأنواع، فهل هذا تاجر؟ بالطبع لا، إنما هو متكالب على الدنيا، فاشل، لا يمكن أن يكون يومًا من الأيام ناجحًا، لأن النجاح بريء من عديمي الأخلاق.

لا تكن من الثقلاء

من قصص الثقلاء التي ذكرها بعض الفضلاء:

* زارني شخص في غير موعد زيارة ثم تناول قلامة الأظافر فقص أظافره وهي تتطاير على الفراش ووسط الكتب والحاجات، ثم وضعها وانتهت زيارته وانصرف في لا مبالاة عجيبة.

* وآخر تناول مقص صغير من على مكتبي ثم أخذ يعبث به في جرح في قدمه.. وآخر تمخط في المنديل ثم وضعه على مكتبي وانصرف.

* وآخر إذا زارني أسارع لجمع أي شيء من أمامه لأن كل ما يقع تحت يديه فإن مصيره التلف وخصوصًا الكتب.

* وأخر أرسل يستأذنني في أن ينزل عليّ ضيفًا لمدة ثلاثة شهور، فأخبرته بأنني لا يمكنني استقباله هذه المدة، وفي الليلة التالية وجدت الباب يدق وقد جاء ومعه حقائبه مضيفًا نفسه رغمًا عني.

* واستضفت شخصًا لفترة، فلم يكن من خبر في البيت خلال هذه الفترة إلا ووجدت كل الناس تعرفه.

* ونزل عليّ آخر فكلفني فوق طاقتي وأرهقني بمتطلباته، ثم فوق ذلك لم يترك شيئًا إلا وتدخل فيه سواء كان ذلك في عملي أو في حياتي، حتى عند خروجي من المنزل لا يمل من سؤالي: هل ستخرج؟ وأين ستذهب؟ هل ستتأخر؟ ومتى ستعود؟ وتخيلوا أنني لو خرجت ألف مرة في اليوم فإنه لا ينسى مرة أن يسألني هذه الأسئلة الثقيلة، هذا إلى جانب رده على تلفوناتي وإجراءه هذه التحقيقات مع كل متصل حتى لم يبق أحد من معارفي إلا واستفسر مني عن هذا الشخص الذي يرد على التليفونات فأسارع بالاعتذار دون أن أعرف ما جرى لأنني لم أصبح في حاجة بمعرفته فقد حفظته عن ظهر قلب.

* وأعرف صديقًا لي كان يسكن هو وأسرته في شقة مكونة من غرفتين نزل عليه أحد أصدقاءه ومعه زوجته وأبناءه وأم زوجته في ضيافة استمرت لمدة ثلاثة شهور، تخيلوا هذا!! مع أن صديقه هذا رجل ميسور الحال ووضعه الاقتصادي أفضل منه عشرات المرات.

* ونزل عليّ شخص فكان يأخذ التليفون إلى غرفته ويظل يجري اتصالاته طوال الليل حتى أنني نمت يومًا وهو ما زال يتحدث واستيقظت بعد حوالي

الساعتين وهو ما زال يتحدث، ورغم أن هذه المكالمات كانت لمدن بعيدة إلا أنني حمدت الله أنها لم تكن دولية، فقد كفاني أن الفاتورة عن هذه المدة فقد أزهقت نصف راتبي.

* فرض أحد الأشخاص نفسه عليّ وشاركني في سكني، وكنت احتمله لكونه لم يكن يجد عملًا، فلم افرض عليه أي التزامات مادية، وهو لم يعرض أي مشاركة لا في الإيجارات ولا الفواتير والالتزامات الأخرى، والحقيقة أنني كنت أعذره لأنه لا يجد ما يعرضه ولذلك كنت أشعره أن الأمر عادي جدًا وأننا أخوة يجب أن نحتمل بعضنا في الشدائد. وبعد فترة فتح الله عليه ووسع له في رزقه، ولكنه ظل على ما هو عليه وانتهت رحلته في الغربة وعاد إلى بلده وهو كما هو، ورجع إليّ من جديد واتبع نفس الأسلوب، نعم اتبعه لثلاث سنوات، وهو لا يكلف نفسه بالمشاركة في أي شيء على الإطلاق، بل تخيلوا أنه لم يقدم لي الشكر ولا مرة واحدة خلال هذه السنوات الثلاث!!

من أداب الزيارة

* إذا كنت حاضرًا من مكان بعيد فحاول الاتصال قبل خروجك من البيت، وإن كنت من نفس المكان فليس هناك داع للاتصال طالما أن هناك موعد مسبق، ولكن يمكن التأكيد عليه، وأما في حالة عدم وجود موعد مسبق فيُفضل الاتصال -إن أمكن- والاستئذان في الزيارة، لأنه ربما كان الشخص مشغولًا أو عنده ما يمنع من استقبالك، فإذا شعرت بذلك فأجل الزيارة حتى وإن ألح عليك أو أبدى لك استعداده للزيارة،

لأن بعض الناس يمنعهم حياؤهم من الاعتذار عن استقبال الضيوف حتى وإن كان ذلك سببًا في ترك أعمالهم أو التأخر عنها .

❋ اصطحب معك هدية لأطفاله أو هدية لصاحب البيت أو أي شيء لائق، وخصوصًا إذا كنت قادمًا لدعوى، أو قادمًا من سفر بعيد أو أن زيارتك ستطول لأكثر من يوم.

❋ عند وصولك لمكان الزيارة فكن وقورًا واحتفظ بهيبتك وأحفظ لمضيفك هيبته ولا تكن صاحب جلبة ولا ترفع صوتك عند الباب ولا في البيت ولا أثناء الحديث.

❋ قبل أن تدق الباب لا تجري أي اتصالات هاتفية -عن طريق الهاتف المحمول- ولا تدخل البيت أو تدق الباب أثناء إجراء المكالمات ففي ذلك دليل على عدم اهتمامك بالزيارة، ويفضل إغلاقه لبعض الوقت حتى ينتهي الاستقبال بينك وبين صديقك أو مضيفك. وأثناء الزيارة لا تجري أي مكالمات يمكن تأجيلها .

❋ لا تتدخل فيما لا يعنيك، ولا تبدأ زيارتك بالهندسة في البيت فتقول: كان ينبغي أن يكون حجم هذا البيت كذا، ووضع غرفه كذا وأن يوضع هذا هنا وذلك هناك، وأن تتغير الأحجام ولابد من الحديقة. . مالك أنت، إنهم راضون عن هذا وسعداء به، ثم أنك حضرت زائرًا ولم تحضر مهندسًا، ثم لماذا لا تحترم أذواق الناس في حياتهم الخاصة، أليس لكل إنسان ذوقه الذي يرضيه ويسعده؟ أم تظن كل الناس على هواك؟!

❋ قال الأبشيهي: ومن آداب الضيف: أن لا يسأل صاحب المنزل عن

شيء سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة -إن احتاج لذلك- وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم، وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان أكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها، أي إذا رآه قد أرسل في شراء شيء معين فلا يحلف عليه ألا يفعل فربما لم يكن بالبيت شيء يضيفه به فيوقعه في الحرج.

* كن لطيف المجلس، ولا تتأذى من أطفال صاحب البيت أو من تصرفاتهم أو من شيء معين في البيت، فإن كان هذا الشيء مما يستدعي التأذي فلا يكن تأذيك ظاهرًا وأجل الحديث فيه لوقت لاحق وكن حكيمًا عندما تتحدث عنه ولا تخبر به أحد.

* للبيوت أسرار فلا تحاول الاطلاع عليها وإن علمت منها شيء فكأنك ما علمته ولا دريته وتجاهله وأحذر أن تخبر به أحد، وخصوصًا زوجتك لأن النساء أبعد خلق الله عن حفظ الأسرار، ومن هتك لمسلم سرًا هتك الله أسراره.

* احترم وجهات النظر والمبادئ الخاصة بمضيفك، وإن كانت على خلاف وجهات نظرك ومبادئك فلا تتطرق لها ولا تذكرها بسوء حتى لا تهينه.

* لا تصطحب الأطفال في الزيارات والضيافات وخصوصًا إذا كنت تعلم أن أطفالك مشاغبون أو يثيرون المشاكل، وكذلك إذا كان مضيفك ممن يحبون الهدوء أو لم يكن لديهم أطفال.

* لا تستأثر بالحديث على مدار الوقت، ولا تجعل للحديث عن رحلتك

في الوصول إليه نصيب الأسد، وبادر بالسؤال عن مضيفك وأحواله، وأبناءه، وليكن سؤالك سؤال اطمئنان وليس سؤال استقصاء.

* إذا كان وقت وصولك متأخر فلا تبادر بطلب النوم والراحة، واجعل مضيفك هو الذي يعرض عليك هذا مع إبداء رغبتك في طول الحديث معه لاشتياقك إليه وحبك للحديث معه.

* وافق مضيفك فيما يقدمه لك أو يدعوك إليه من أمور كتغيير ملابسك -إذا كنت ستبيت عنده- أو تناول الطعام أو المشروبات، ولا تكن كثير الاعتذار عن كل شيء.

* نم في المكان الذي يذهب بك إليه ولا تفرض عليه أن يغيره لأي سبب من الأسباب، لأنه اختار لك أكثر الأماكن مناسبة في البيت وهذا يسعده فلماذا لا تشعره بأنك سعيد بما يسعده؟!

* لا تطل الزيارة قدر الإمكان، فكلما قصرت زيارتك كلما أحب الناس قدومك وسُروا بزيارتك، وقصر الزيارة مما يجعلك ضيفًا مرغوب فيه، وذلك على العكس من الضيف الثقيل الذي يتمنى الجميع نزوحه ويكرهون نزوله.

* إذا كنت تعزم الزيارة لأكثر من يوم ووجدت أن ظروف البيت والمكان لا تتناسب مع إطالة الزيارة فحاول تقصير الزيارة ولو لأقل من يوم، ثم لا تذكر لمضيفك هذه الأسباب حتى لا تصيبه بالحرج. ومن الأسباب التي تجعلك تعدل عن أطالة مدة الزيارة أن يكون حجم البيت أو عدد الغرف لا يتسع لأكثر من أهل البيت، أو تكون الفترة فترة امتحانات وفي

البيت من يؤدي هذه الامتحانات، أو علمت أن صاحب البيت يخرج لعلمه لفترات طويلة، وغيرها مما يستنتجه كل لبيب فطن.

* لا تصطحب معك أحدًا من غير أن تستأذن صاحب البيت، ولا تفرض عليه شخصًا أو ضيفًا، وإذا كانت زيارتك ستطول فلا تستأذنه على الإطلاق في مرافقة أي شخص آخر.

* لا تستعجل صاحب البيت بالأكل وتشكو له الجوع ظنًا منك أن في هذا بسط لمكارم الأخلاق، فالحقيقة أن هذا مما لا يليق بأهل الذوق.

* لا ترهق صاحب البيت بمتطلباتك وحاجاتك.

* لا تستخدم تليفون المنزل إلا لضرورة، ولا تصطحبه معك إلى غرفتك، ولا تجر منه المكالمات الدولية إطلاقًا سواء لضرورة أو لغير ضرورة.

* لا تثر له المشاكل في منطقته أو بيته أو بلده.

* إذا -لا قدر الله- صار لمضيفك مشكلة أو مصيبة فكن كأنك صاحب المصيبة ولا تتعامل وقتها كضيف بل تعامل كأنك من أهل البيت وتصرف بحكمة ولا تتخلى عنه حتى تنجلي غمته ويكشف الله عنه مصيبته، وإن لم تفعل ذلك فلست والله من أهل الكرم ولا النخوة والمروءة.

* اشكر مضيفك على الزيارة وعلى ما بذله من جهد ومعروف، وأشعره بمدى رضاك عن هذه الزيارة.

* اتصل عليه بعد وصولك وطمأنه وأعد الشكر، واسأله عن أخباره وأخبار أسرته.

من آداب الطعام

أحدهم كان يخرج قطع الطعام من فمه ثم ينظر فيها ويقلبها، وأخيرًا يضعها أمامنا على المائدة أثناء الأكل، ولما حاولت أن أنبهه بطريقة غير مباشرة قال لي: أنت مثالي أكثر من اللازم.

وآخر كان ينظف أسنانه بمؤخرة الملعقة بعد الانتهاء من الطعام والجميع جلوس على المائدة ويفعل كما يفعل السابق من النظر والتدقيق فيما تخرجه الملعقة ثم يضعه على المائدة.

وأما التجشؤ فلا أحدثك بخبره لأنه على كثرة ما يأتيه الناس على الطعام فإنهم لا يبالون به، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التجشؤ، وقد عدوه أيضًا من خوارم المروءة على الطعام. (التجشؤ هو خروج الصوت من المعدة، وهو ما يسميه البعض بالتترع أو التكرع، وهو صوت بغيض يصيب الآكل عند سماعه بالقرف والتقزز والرغبة في التقيؤ).

وبعض الناس عندما يأكل تجده يمد يده في كل اتجاه كالإخطبوط محاولًا أن يسيطر على المائدة كأنما لم يأكل في حياته أبدًا.

من آداب العمل

ذكر بعض الأفاضل فقال: كنت أعمل في شركة ودعاني صاحب الشركة لحضور غذاء عمل، وكان من بين الحضور صاحب شركة صديق لصاحب شركتنا، فقال لي ونحن على الغذاء، أريدك أن تأتي لتعمل معي في شركتي

وهذا على مسمع ومرأى من صاحب الشركة التي أعمل بها، فما كان مني إلا أن بهت ولم أجد جوابًا أجيبه به، وبلغ بي الإحراج قمته من صاحب الشركة التي كنت أعمل بها. فليس من الذوق واللياقة مثل هذا العرض، بل فيه إفساد للعلاقة بين الموظف وصاحب العمل الذي يعمل فيه، وإذهابٌ للود في النفوس بين الموظف وصاحب الشركة، وكذلك إذهابٌ للود بين صاحب الشركة الأولى والثانية.

أدب الاستفتاء

كنت في مجلس أحد كبار العلماء فجائه مستفتي فسأله، فأجابه بجواب لم يعجب المستفتي ورفع صوته وأخذ يحسبن ويغلي ويزبد، فما كان من الشيخ إلا أن قال له اذكر الله، اذكر الله، فينبغي للمستفتي أن يتحلى بالأدب والأخلاق الفاضلة، ولا يفعل ما يشعر بعدم تقبله للفتوى، وإن كان يريد الاستفهام أو الاستفسار عن شيء في الفتوى فليكن ذلك بأدبٍ واحترام وتوقيرٍ للمفتي.

رجلٌ آخر استفتى في مسألة فاجابه المفتي بما لم يكن على هواه فما كان من المستفتي إلا أن قال للمفتى إذا كنت لا تعرف فلا تفتي، يعني أنه يعترض على الكلام وينتقض من المفتي، فأين الأدب والذوق واللياقة في هذا، وكان يسعه أن يقول جزاك الله خيرًا وينصرف ثم يعمل بفتواه أولا يعمل.

التدخين

لا شك أن التدخين أمرٌ محرم وقد تتابعت فتاوى العلماء على حرمته وبيان خطورة أضراره وتجد بعض الناس إذافة إلى حرمة التدخين يزيدون البلة طينًا بأن يدخنوا في الأماكن العامة، والأماكن المغلقة كسيارة الأجرة مثلاً أو في المصعد، أو في مجلس مغلق، وكذلك التدخين في وجود الأطفال الصغار فهذا خطرٌ كبيرٌ على الأطفال بل تجد بعضهم قد يأخذ نفسًا من السيجارة، ثم ينفث الدخان في وجه أحد الحاضرين، أو ينفض رماد السيجارة على أثاث البيت وفراشه.

وكذلك تدخين الصغير أمام الكبار ليس من الذوق واللياقة إضافة إلى المجاهرة بالمعصية فهو لم يحترم الكبير، أو تجد من يدخن أمام والده أو والدته، وما أشبه ذلك من التصرفات التي تنم كلها عن نقصٍ في الذوق واللياقة.

المراجع

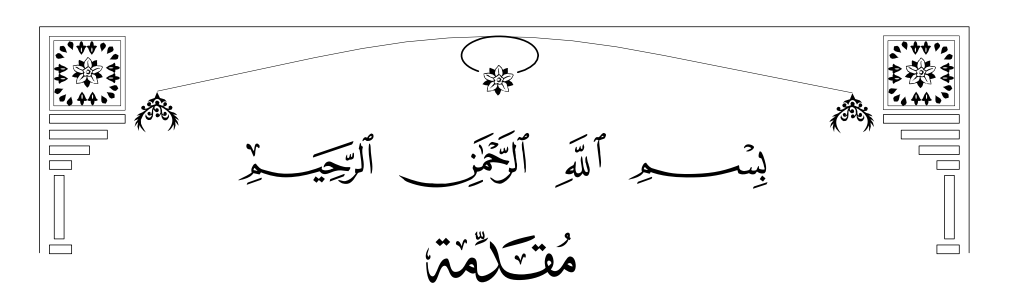
- الأداب الشرعية - لابن مفلح.
- الذوق وفن التعامل مع الناس - خالد السيد عبد العال.
- مختصر منهاج القاصدين - لابن قدامة.

فهرس الموضوعات

رسالة إلى أخي المتكبر

كتبها

إسلام محمود دربالة



مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: هذه رسالة أكتبها إليك أخي، فأنت أخي في الإسلام تجمعنا أواصر العقيدة الواحدة، والملة الخالدة، والأخلاق الحسنة التي نتعامل بها مع بعضنا البعض، وهناك أواصرٌ وروابطٌ مشتركة كثيرة بيني وبينك، فنحن نعيش في بيئة واحدة، ومجتمعٍ واحدٍ، ونتحدث بلغة واحدة، وقد يكون بيني وبينك قرابة أو نسبٌ أو مصاهرة، فنحن بيننا الكثير والكثير من الأشياء الجميلة، والنقاط المشتركة، ولك عليَّ حق النصح والتوجيه والتعليم، والدلالة على الخير، والتحذير من الشر؛ فأنت أخي ... أخي

في الدين واللغة والمجتمع، وربما كنت جاري أيضًا، يا إلهي... كل هذه روابط تجمعنا سويًا.

قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ورسوله والمؤمنين**»[(١)]، وقال ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره**»[(٢)]، وفي الحديث الآخر: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه**»[(٣)]، فأنت لك حقٌ علي كبير، لا أستطيع أن أحقرك لأنك أخي... لا أستطيع أن أخذلك لأنك أخي... لا أستطيع أن أسلمك لأنك أخي...

لا أستطيع أن أتكبر عليك، ولا أن أتعالى عليك لأنك أخي، وعندك من المزايا ما يجعلني أمتدحك وأثني عليك بالخير، وفيك من ضروب الخير أشكالًا وألوانًا، إلا أن فيك أمرًا لا أرى أمامي بدٌ من مواجهتك به؛ لشدة خطره وكبير ضرره على نفسك وأبنائك، وأسرتك ومجتمعك، ودينك وآخرتك.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

وكأني بك تقول: يا الله، كل هذا الخطر والضرر (أنا) واقعٌ فيه ومتلبسٌ به...

أقول لك وللأسف نعم، أخي أنا على يقين تام بأنك قد لا تشعر بهذا الخطر المحدق بك وبي وبالمجتمع؛ بل وبالأمة جمعاء.

وكأني بك تضحك في نفسك وتهزأ؛ وتقول: وما دخل الأمة في الموضوع؟!

وكأني بك تقول إنك أيها الإنسان، تعظم الأمور، وتنفخ فيها، وتعطيها أكبر من حجمها وقدرها، فأنت من أهل التهويل، أو ربما كانت عندك حساسية زائدة.

أقول لك: إن الأمور الحقيرة الصغيرة تعظم وتكبر مع الزمان أو مع عدم مبالاة الفاعل، فمن قواعد أهل العلم: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»، وأنت متلبسٌ (بكبيرة)، يالله كبيرة، نعم، إن الكبر من كبائر الذنوب، وسيأتيك بيان ذلك.

أما بيان كيف أن هذا الكبر يضر بك وبي وبالمجتمع؛ بل وبالأمة.

فإليك البيان: يتكبر الإنسان فيبغضه من حوله، ويتلاشون الحديث معه، أو تجد صنفًا آخر يناوشونه ويقذعون[1] له في القول؛ بل وقد يصل الأمر إلى أن يتكبروا عليه، فيكون كبره قد ولَّدَ كبرًا وعَلمه لغيره، وقد تقع بينك وبين من تتكبر عليه عداوة وبغضاء، فهو يبغض كبرك، فيبغضك ويخاصمك حتى تقع

(١) أقذع في القول: أي: قال له كلامًا قبيحًا سيئًا.

بينكما العداوة. . . أو تظن أن كل الناس ستتحمل كبرك المقيت البغيض.

أما المجتمع، فتجد هذا الإنسان المتكبر يتكبر على خلق الله، فينشر الكبر بين الناس، ويبادلونه الحقد والعداوة والبغضاء، وقد يكتسبون منه هذا الخلق البغيض، فيتكبرون عليه.

وهذا الكبر لا تظننه يقتصر على الناس بعضهم البعض، فمن الناس من يصل به كبره إلى التكبر على نصوص الكتاب والسنة، وإلى التكبر على جبار السماوات والأرض إلى التكبر على الخالق ﷻ.

فخطر الكبر عظيم، تجد أحدهم ولنفترض أنه مسئول قرية يتكبر على مواطنيه، ومن هو دونه، فيورث الكبر والعداوة، فيتفلت الناس من حوله، ويحاولون شق عصا الطاعة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ثم تجد العداوة بينه وبين مَنْ هم دونه من المسئولين كمسئول الزراعة بالقرية أو مسئول المياه أو ما شابه من المناصب، فتقع البغضاء وتتطور، ويتكبر هذا على ذاك، ويحتقن الآخر، فيصل الأمر به إلى الغل والحقد، فيكيد هذا لهذا، حتى قد يصل الأمر إلى القتل، وهذا مشهورٌ معروفٌ في القرى والبراري من قديم الزمان.

فإن ارتقيت أو قل انحدرت إلى الأعلى، فتجد العداوة بين مسئول القرية ومسئول المدينة، وهكذا.

بل تجد الكبر يصل إلى رؤساء الدول والبلاد، فتضيع مصالح الأمم، وقد تقوم حروبٌ بين دول أو تقطع علاقات لا لشيء إلا لتكبر هذا على ذاك، وتعالي هذا على هذا.

. . . أخي لو تصورت الأمر، فإن الأمر كبيرٌ جلل.

وكأني بك تقول: أو لم يتبق من الأمور إلا الكبر، أين أنت من الشرك أين أنت من أكل أموال الناس بالباطل، أين أنت من ترك الصلوات؟

أقول: إن كل ذلك من المهمات العظام، وقد تكلم عنها أهل العلم، وتكلمتُ على كثير منها في بعض ما سطرته نصحًا وتوجيهًا ولله الحمد والمنة.

وأمر الكبر خطره عظيم أيضًا، وهو داءٌ قد لا يشعر به صاحبه، ولا يستشعر خطره، وهو أمر يؤذيني شخصيًا، وأرقب توغله وانتشاره بين الناس من طرفٍ خفي، ولما أعانيه من ضرر الكبر وسوء عاقبته كتبت لك أخي هذه الكلمات؛ عسى أن تكون سببًا للإصلاح والتغيير والتحسين.

ومن طريف ما حصل معي أنني في أثناء إعدادي هذه الرسالة التي بين يديك وجدت أنني قد أقع في بعض تصرفات المتكبرين، أو قد يصدر عني تصرف فيه كبر في بعض الأحيان.

فهذه من فوائد الاشتغال بالعلم أنه يكشف للإنسان ما قد يقع فيه من الأخطاء، فيعالجها ويداويها، نسأل الله أن يداوي عيوبنا، وأن يسد خللنا، وأن يغفر زللنا.

ولا يخفى أن هناك فرقًا بين أن نقول: فلانٌ متكبر، وفلان فيه كبر، أو وافقت أفعاله أفعال المتكبرين، فهي درجات متفاوتة، وسيأتيك تفاصيل ذلك بعون الملك الكريم.

وللحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري كان حيًا (٣٩٥ هـ) رسالة بعنوان: «ذم الكبر»[١].

نعوذ بالله تعالى من الكبر كله، دقه وجله، كبيره وصغيره، وأستغفره سبحانه من الكبر والعجب، والشح والغل، والحقد واحتقار المسلمين، وأستغفره سبحانه من كل ذنب هو أعلم به مني، اللهم احشرنا في أهل التواضع.

كتبه

أخوك المحب/ إسلام دربالة

---

(١) حققها يوسف محمد فتحي عبد الوهاب مصر - دمنهور - مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد ١٧ - ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١م، ص ٤١٧ - ٤٨٨ .

تعريف الكبر

الكبر لغة: «العظمة والكبرياء»(١).

والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق، معاندةً وتَكَبُّرًا(٢).

الكبر في الاصطلاح: «الكبر رفع نفسه فوق قدره... فالكبر هو ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره والتكبر إظهارٌ لذلك، وهذه الصفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادعاها من المخلوقين فهو كاذبٌ فيها، ولذلك صار مدحًا في حق الباري سبحانه وتعالى، وذمًا في البشر، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] تنبيهًا على أن ذلك لهم رفعة لا ضعة».

«الكبر خلقٌ باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخُلق هو: رؤية النفس على المُتَكَبر عليه.

يعني: يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبرًا.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده، تصور أن يكون معجبًا، ولا يتصور أن يكون متكبرًا، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه.

فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حَقَّر من دونه وازدراه،

(١) «المصباح المنير» (١٩٩).

(٢) «لسان العرب» (٥/٣٨٠٨).

وصفة هذا المتكبر: أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالًا واستحقارًا»[١].

«والمتكبر والضرع[٢] كلاهما جاهلان، لكن الضرع غبي والمتكبر غبي أحمق، وشتان بينهما، فالغبي قد يتأدب والأحمق لا سبيل له إلى تأديبه، ولأن الضرع قد ترك ماله، والمتكبر ادعى ما ليس له وشتان ما بين المنزلتين»[٣].

قالوا عن الكبر

«قال بعض الفضلاء: الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل».

مر بعض أولاد المهلب بن أبي صفرة بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذا الخيلاء لكان أجمل، فقال: أوما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أوَّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه.

وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٢٧ - ٢٢٨).

(٢) الضرع: تدل على عدة معانٍ في دائرة الصغير، والضعف والجبن «لسان العرب» (٢/ ٥٣٠).

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٢٩٩ - ٣٠٠).

أشعار عن الكبر

وقال منصور الفقيه:

تتيه وجسمك من نطفة ... وأنت وعاء لما تعلم[(١)]

وقال ابن عوف:

عجبت من مُعجبٍ بصورته ... وكان بالأمس نطفة مذرة

وفي غدٍ بعد حسن صورته ... يصير في اللحد جيفة قَذِرَه

وهو على تيهه ونَخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العَذِره[(٢)]

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته ... أنظر خَلاك فإن النَّتن تثريبُ

لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبرَ شُبان ولا شيبُ

هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمةً ... وهو بخمس من الأقذار مَضرُوبُ

أنفٌ يسيل وأذن ريحها سهِكٌ ... والعين مُرمَصَةٌ والثغرُ ملعوبُ

يا ابن التراب ومأكول التراب غَدًا ... أقصر فإنك مأكولٌ ومشروب[(٣)]

---

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٣).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للمارودي – ص (٢٣٢).

(٣) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٢٣٣).

وقال آخر:

وإياك والإعجاب والكبر تحظ بالسـ عـادةِ فـي الـداريـن فـارشـدِ

وقال آخر:

كِبْرًا علينا وجبنًا عن عدوكم لبئست الخَلتان: الكبر والجبن

قالوا عن الكبر

«قال بعضهم: رأيتُ في الطواف رجلًا بين يديه شاكريه يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئًا، فتعجبت منه، فقال لي: تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه»(١).

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبرٌ على جنسه، ولكان كل كامل خائفًا محتقرًا لعمله، حذرًا من التقصير في شكر ما أنعم عليه»(٢).

«وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر ويوجب مساكنة الذل»(٣).

«عجبت لمن يُعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء، فإن شئت فقل: كسرة خبز معها

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣٤٠).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

تمرات، وقطعة من لحم، ومذقة من لبن، وجرعةٌ من ماء، ونحو ذلك، طبخته الكبد، فأخرجت منه قطرات مَني فاستقرت في الأنثيين، فحركتها الشهوة، فبقيت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها، فخرجت طفلًا تَقَلَبَ في خرق البول.

وأما آخره؛ فإنه يلقى في التراب فيأكله الدود ويصير رفاتًا تسفيه السوافي.

وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر، ويقلب في أحوال إلى أن يعود فيجمع»[١].

وقال ابن الجوزي:

«ومن تأمل خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك.

فالذي نحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة.

والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه، وقد قيل لعمر بن عبد العزيز: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إلي من أن أرى نفسي أهلًا لذلك»[٢].

قال ابن الجوزي: «روينا أن رجلًا من الرهبان رأي في المنام قائلًا يقول له: فلان الإسكاف[٣] خيرٌ منك، فنزل من صومعته فجاء إليه فسأله عن

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٣) الإسكاف: هو الذي يصلح الأحذية.

عمله، فلم يذكر له كبير عمل.

فقيل له في المنام: عد إليه وقل له: مم صفرة وجهك؟ فعاد فسأله، فقال: ما رأيت مسلمًا إلا وظننته خيرًا مني، فقيل له: فبذاك ارتفع»[(١)].

من شر أنواع الكبر

«من شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق، والانقياد له.

وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبرٌ على الله وعلى رسوله.

أما التكبر على عباد الله فهو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم، وذلك أيضًا يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كِبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امتثال أمر ربه في السجود»[(٢)].

أبعد الناس عن الكبر والعجب

«أحق من كان للكبر مجانبًا، وللإعجاب مباينًا من جل في الدنيا قدره، وعظم فيها خطره، لأنه قد يستقل بعالي همته كلَّ كثير، ويستصغر معها كل كبير، وقال محمد بن علي: لا ينبغي للشريف أن يرى شيئًا من الدنيا لنفسه

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٢) «مختصر منهاج القاصرين» (٢٢٨).

خطيرًا فيكون مهانًا به.

وقال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك.

وكان يقال: اسمان متضادان بمعنى واحد: التواضع والشرف»[١].

درجات الكبر

«**الأولى**: أن يكون الكبر مستقرًا في قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يُظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر في حقه.

الثالثة: أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره»[٢].

أقبح الكبر بين البشر

«أقبح الكبر بين الناس ما كان معه بخل، واستحسن قول الشاعر:

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما ... تيه الملوك وأفعال المماليك»[٣]

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوري (٢٣٣ - ٢٣٤).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٢٩).

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠١).

الكبر أول ذنب عصي الله ﷻ به

«أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: «الكبر» و«الحرص» فكان الكبر ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه، وذنب آدم عليه وعلى نبينا السلام كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة[(١)].

ذم الكبر شرعًا وطبعًا

«الكبر والعجب مذمومان شرعًا وطبعًا، أما الشرع: فقد علمت دليله.

وأما الطبع: فإن الكبر حركات شيطانية، وخطرات نفسية يتركب من رؤية قدره، ونفوذ علمه وحكمته وقصور غيره عن حاله، ويورثه استكبارًا عن الحق إذا طولب به، وإقامة المعاذير لنفسه عند ظهور الحجة عليه، والغيبة عن ربه ومولاه الذي هو رقيب عليه، فلو لاحظ ذلك لذلت نفسه، واعتدل كبره، وصار عزة؛ إذ معرفة الله تعالى وظهور صفات النفس غالبًا لا يجتمعان؛ اللهم إلا في ناقص البصيرة، بحيث يبصر أمرًا ويغيب عن

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣١٧).

آخر، فقد يدخل عليه بسلب العمى ما يخلفه عن ذلك»[(١)].

التكبر على الله ﷻ

جاء في «لسان العرب»: «استكبار الكُفار: ألا يقولوا لا إله إلا الله.

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وهذا هو الكبر الذي قال النبي ﷺ: «**إن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لم يدخل الجنة**» قال: يعني به الشرك، لا أن يتكبر الإنسان على مَخلوقٍ مِثْلِه وهو مؤمنٌ بربه»[(٢)].

التكبر على الله شرٌ من الشرك

قال ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: التكبر شرٌ من الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره»[(٣)].

التكبر على الخلق

«التكبر على الخلق ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: التكبر على الرسل عليهم الصلاة والسلام من جهة ترفع النفس

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣٤٠).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور (٥/ ٣٨٠٨).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٣١٧).

عن الانقياد للبشر، وربما عرفت النفوس صحة قولهم وما جاؤوا به فيمنعها الكبر عن الانقياد والانفعال لهم، وهذا كفر، نعوذ بالله منه ومن غيره.

والثاني: التكبر على الخلق، سوى من قدمنا من الأنبياء والمرسلين.

وهو عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر لا بالعبد العاجز، ثم إنه يتكبر بما ليس له ولا خلق شيئًا منه، وأمره في يد غيره، وهو مربوب مقهور.

إن أعجب بجماله فجماله ليس هو من صنعه، أو بعلمه، فعلمه ليس من وسعه، فإنه لا يتعقل كيف يعلق العلم بالقلب، ولا يدرك كيف يعقل في الحافظة، ولا يحيط بكنه حقائق الحراس الباطنة، ومن كان بمثل هذه المثابة فكيف يعجب ويتكبر.

الوجه الثاني: أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله ﷻ في أمره ونهيه؛ لأن المتكبر يأنف من قبول الحق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، ولذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[١]، وربما تكبر العالم واحتقر الناس، ويرى أنه في الآخرة أعلى منهم منزلة، وليس هذا بعالم بل ظالم، لأن العلم هو الذي يعرف الإنسان نفسه، ويعلمه حجة الله عليه فيزيده خوفًا.

ولذا قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من ازداد علمًا ازداد وجعًا، وربما كان العلم

(١) رواه مسلم.

حجة عليه عند الله تعالى، وربما تكبر العابد بعبادته ولعلها غير مقبولة عند الله جل شأنه، وربما تكبر صاحب النسب بنسبه، ونسي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وربما تكبر الغني بغناه، ولو عرف المسكين آفة الغنى وشرف الفقر، وأن الدنيا لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها شربة ماء، وأن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام، لما تكبر بها»(١).

ذم الكبر والمتكبرين في القرآن الكريم

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال عز من قائل: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: ٣٧].

تفكر في أصلك وتركيبك وقد نبه الله سبحانه على ذلك أحسن تنبيه فقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

(١) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني (٢/ ٢٢٤).

وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ١٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

الأحاديث الواردة في ذم الكبر

* عن حارثة بن وهب رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأهل النار: كل عتلٍ جواظ مستكبر**»(١).

قال الحافظ المنذري: «العُتُلُ بضم العين المهملة والتاء المثناة فوق، وتشديد اللام، هو: الغليظ الجافي.

والجواظ: بفتح الجيم وتشديد الواو وبالظاء المعجمة: هو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال في مشيته»(٢).

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «يقول الله عز وجل: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**»(٣).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «الترغيب والترهيب».

(٣) رواه مسلم.

تعالى يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زان، وملكٌ كذاب، وعائلٌ مستكبر»[١].

العائل: بالمد، هو الفقير.

❊ عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما على المروة فتحدثا، ثم مضى عبد الله ابن عمرو، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا؛ يعني عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، كبه الله لوجهه في النار**»[٢].

وفي رواية: «**لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من كبر**»[٣].

❊ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» فقال رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة!!، قال: إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٤].

بطر الحق: بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة جميعًا، وهو: دفعه ورده.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

وغمط الناس: بفتح الغين المعجمة وسكون الميم وبالطاء المهملة، هو: احتقارهم وازدراؤهم.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: (بُوْلَس) تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**»[١].

بولس: بضم الباء الموحدة، وسكون الواو، وفتح اللام بعدها سين مهملة، والخبال: بفتح الخاء المعجمة والباء الموحدة؛ عصارة أهل النار.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون**»[٢].

قال الحافظ المنذري: «الثرثار بثائين مثلثين متفتوحتين، وتكرير الراء هو الكثير الكلام تكلفًا، والمتشدق هو المتكلم بملء فيه تفاصحًا وتعاظمًا واستعلاء، وهو معنى المتفيهق أيضًا»[٣].

(١) رواه النسائي والترمذي وحسنه.
(٢) رواه أحمد والترمذي، والطبراني وابن حبان، وقال الترمذي: حسن غريب.
(٣) الترغيب والترهيب - للمنذري.

الفرق بين المهابة والكبر

«المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلاء القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبةً ومهابةً، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

أما الكبر: فأثرٌ من آثار العجب والبغي، من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهبٌ بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدًا ولا من الناس إلا صغارًا وبغضًا»[١].

الفرق بين الصيانة والتكبر

«الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار، والطبوع

---

(١) «الروح» لابن القيم.

وأنواع الآثار إبقاءً على بياضه ونقائه. . . . بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تعززه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لونٌ وذاك لون، فجعل الكبر أثرًا من آثار العجب وثمرة من ثمراته»[١].

طرفان ووسط

«اعلم أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط.

فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا.

وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة.

والوسط يسمى تواضعًا، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوسطها.

فمن تقدم على أقرانه فهو: متكبر ومن تأخر عنهم فهو: متواضع؛ لأنه قد وضع شيئًا من قدره.

فأما إذا أُدخل على العالم إسكاف[٢] أو نحوه، فتنحى له[٣] عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدَم له نعله ومشى معه إلى الباب؛ فقد تخاسس وتذلل[٤]، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطي كل ذي حقٍ حقه.

---

(١) «الروح» لابن القيم.

(٢) الإسكاف: هو الذي يصلح الأحذية.

(٣) أي تنحى العالم للإسكاف.

(٤) أي: العالم.

لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال، واللين في الكلام وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره ولا يستصغره»[١].

الكبر يتولد من العجب

قال الراغب الأصفهاني:

«الكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية»[٢].

وقال صاحب مختصر منهاج القاصدين:

«اعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة»[٣].

وقال الحارث المحاسبي: «وله أسباب -أي الكبر- من جملتها العجب وهو أكبرها»[٤].

العجب يتولد من الجهل

وسبب العجب وعلته الجهل المحض.

ومن أعجب بطاعته مثلًا فما فهم أنها بالتوفيق حصلت، فإن قال: رآني

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٣).
(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٠).
(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٤).
(٤) الرعاية - للحارث المحاسبي.

أهلًا لها فوفقني، قيل له: فتلك نعمةٌ منه وفَضله فلا تقابل بالإعجاب.

«وإذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملًا، ولم يعجب به، لأشياء.

منها: أنه وفق لذلك العمل، و﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنها: أنه إذا قيس بالنعم لم يف بمعشار عشرها.

ومنها: أنه إذا لوحظت عَظمة المخدوم احتقر كل عمل وتَعَبُد»[١].

من علامات الكبر

«من علامات الكبر: أن يطلب إقامة جاهه، وكسر غيره، والانتقام منه بغير حق، ولا يذكر أحدًا إلا انتقصه، وذكر عيوبه، ونسي فضائله وأظهر فضائل نفسه، وكل هذا مذمومٌ طبعًا»[٢].

التكبر بالعلم

بعض الناس إذا علم معلومةً أو معلومات أو أوتي معرفة في علم من العلوم تجده يرى حظ نفسه ويغمط غيره ويحقره وما علم ذلك المسكين أنه خرج من بطن أمه لا يعلم شيئًا ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] وما تذكر أن الفضل لله ﷻ وحده فيما تعلمه وعرفه

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.
(٢) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٣٠).

وهو سبحانه القادر على أن يسلبه علمه ومعرفته بل ويسلبه عقله كله.

يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أقوامًا عَلت هممهم فحصلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك فأتاهم إبليس يخفي التلبيس فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم...».

حسن لهم الكبر بالعلم، والحسد للنظير، والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم وتارة يقوي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ.

وعلاج هذا لمن وفق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات بل يضاعف عذابها لتضاعف الحجة بها.

ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر، ومن عرف الله لم يراء، ومن لاحظ جريان أقدراه على مقتضى إرداته لم يحسد»[(١)].

التكبر بالعبادة

بعض الناس إذا من الله عليه بالتعبد بعبادة من العبادات تجده يتكبر ويدلُ بعلمه ويحقر غيره من الناس ممن لم يفتح لهم في العبادة وهذا المسكين نسي أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي من عليه بالعبادة وفتح له فيها وهو القادر

---

(١) تلبيس إبليس (١٥٧ - ١٥٨) باختصار.

على أن يسلبها منه، وينزع منه لذة العبادة بل والقدرة على فعلها، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

التكبر بالمال

يا صاحب المال من أتاك المال وماذا كنت قبل أن يؤتيك الله المال، وما مصير مالك كلٌ إلى زوالٍ وفناء وفي الحديث «**يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله...**»(١).

أين الملوك وأين الأغنياء وأين أصحاب القصور أين قارون وفرعون وهامان ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧].

التكبر بالنسب

أين ذوي النسب إنهم في التراب أكلهم الدود وماذا ينفع نسب إن أبطأ بك العمل.

---

(١) متفق عليه.

وأين أبا لهب ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥].

ومن تلبيس إبليس «أن يكون لأحدهم نسبٌ معروف فيقول أنا من أولاد أبو بكر، وهذا يقول أنا من أولاد علي، وهذا يقول أنا من أولاد الحسن والحسين، أو يقول أنا قريب النسب من فلان العالم، أو من فلان الزاهد...»[١].

التكبر بالجمال

ينبهر كثير من الناس بالشكل والمظهر، وتجد ذلك متفشٍ بكثرة بين النساء بعضهن البعض.

وهذا الجمال ذاهب والله ﷻ هو الواهب وهذا الجمال سيوضع على التراب ويأكله الدود بل قد يصير إلى جهنم والعياذ بالله إن لم ينجه عملٌ صالح، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

التكبر بالقوة

«ليس الشديد بالصرعة، ولكن من يملك نفسه عند الغضب»[٢].

فالقوة تزول، والله ﷻ الذي وهبك القوة هو من أمرك بالعفو والحلم

(١) تلبيس إبليس - لابن الجوزي (٤٧٢ - ٤٧٣).
(٢) رواه البخاري ومسلم.

والصفح والرفق والتواضع، وقد قال ﷺ: «**ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه**»(١).

فأين عاد وأين إرم وأين ثمود ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

التكبر بالعيال

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٠ - ١٦].

التكبر بالكثرة

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

التكبر بالمناصب

بعض الناس يكون خادمًا للمنصب، لا هو ومنصبه خادمٌ لمن ولاه الله

---

(١) رواه مسلم.

عليهم، سواء كانت تلك الولاية عامة أو ولاية خاصة.

فبعض الناس يسعى إلى المنصب ابتغاء الرفعة والفخر، فيتكبر على الناس، ولايقضي مصالحهم وبعضهم قد يستغل نفوذ منصبه لتحقيق مصالح له ولمعارفه أو أقاربه.

والواجب أن يُسخر منصبه لخدمة المسلمين وتحقيق مصالحهم.

وفي الأثر، وما تواضع عبد لله إلا رفعة فالموفق منا كلما علا في المناصب ازداد في التواضع لله ولعباد الله المؤمنين.

التكبر بكثرة الأتباع

تقدم معنا قوله ﷻ حاكيًا عن ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: ٣٤].

التكبر بالعقل والذكاء

بعض الناس قد يهبه الله من العقل والذكاء وربما القدرة على الحفظ مالم يهب غيره فقد يشعره من آتاه الله تلك النعم بشيء من الترفع على الناس وقد يصل الأمر به إلى بطر الحق وغمط الناس عياذًا بالله.

وبخاصة إذا وجد من ليس عنده من تلك النعم شيئًا أو من هو أقل منه فيها.

بل قد يتمادى به الأمر فيتطاول على أهل العلم من أهل الفقه لدين الله من فقهاء ومحدثين وغيرهم من الشرعين، بما وهبه الله من ذكاء وعقل وحفظ، والممدوح شرعًا هم أهل العلم بدين الله ﷻ وأهل الفقه لا أهل الذكاء والعقل والحفظ فعقل وذكاء وحفظ بدون هداية من الله وبدون علم شرعي قد يكون من آتاه الله علمًا شرعيًا مع قدرٍ من العقل والذكاء والحفظ دون القدر الذي أوتيه ذلك المتكبر يكون صاحب الفقه والعلم الشرعي في منزلة أعلى عند الله عن صاحب عقلٍ وذكاءٍ وحفظ مع جهلٍ وعدم فقه قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين**»(١). وليعلم ذلك المتكبر أن العقل والذكاء والحفظ ليس بمذموم ولكن المذموم هو التكبر بتلك النعم، فليراقب ذلك المتكبر ربه وليعلم أن الذي وهبه تلك النعم قادرٌ على أن يسلبها منه، عقابًا على تكبره وبطره.

التكبر بالخبرة

حضرت حديثًا دار بين رجل صاحب مهنة طب فكان يقول أنا بخبرتي أستطيع أن أشخص الأمراض وأنا بخبرتي أستطيع أن أداوي، فقال له محدثه ذلك فضل الله فإذا بذلك الطبيب يقول له لالالا هذه خبرة مني.

فهذا المسكين من الذي أتاه الخبرة ومن الذي وهبه المعرفة، وأعانه على الممارسة أليس هو جبار السماوات والأرض.

---

(١) رواه مسلم.

فالإنسان المتواضع لله ينسب الفضل لله أولًا ثم بعد ذلك ليقل خبرة أو ذكاء أو فهم أو ما شاء مما يسره الله له.

أقسام الكبر

١- كبر الكفر. **٢**- كبر المعصية.

كبر الكفر:

«وهو الكبر الذي لا يدخل صاحبه الجنة... فإن العبد قد يتكبر على الخالق لفرط جهله فيكفر به ولا يعبده، وربما تكبر على أنبيائه ورسله، وهذا كافرٌ لا يدخل أبدًا»(١).

قال في «النهاية»: «في قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر**»(٢)؛ يعني: كبر الكفر والشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠](٣).

شمائل المتكبرين

«التكبر يظهر في شمائل الإنسان؛ كصعر وجهه ونَظره شزرًا، وإطراق رأسه، وجلوسه، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، صيغة إيراده

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٢٥).
(٢) رواه مسلم.
(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير.

الكلام، ويظهر ذلك في مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته.

ومن خصال المتكبرين: أن يحب قيام الناس له[١]، وأن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه، وأن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس، ومنها أن يستنكف من جلوس أحد على جانبه أو مشيه معه. . . ، ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته. . . ومنها: أن لا يحمل متاعه من السوق إلى بيته»[٢].

الاستطالة

«استطال عليه قهره وغلبه، وتطاول عليه كذلك، ومدار الباب على الزيادة»[٣].

مادة طَول، يقال: شيء طويل ومستطيل، وطاولني فطلته، وتطاول: تمدد قائمًا لينظر إلى بعيد. . .

وهو يتطاول على الناس ويستطيل، وله عليهم تطاول واستطالة»[٤].

والاستطالة: إظهار الطول، فمن أظهر ذلك من غير طول فهو منسلخ عن الإنسانية، ومن أظهر ذلك مع الطول فقد ضيع طَوله»[٥].

---

(١) انظر تفاصيل المسألة وتفصيل ما يكون من القيام محرمًا أومكروهًا وما يكون مباحًا في «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٠) و«شرح النووي على صحيح مسلم».

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٠ - ٢٣١) باختصار وتصرف.

(٣) «المصباح المنير» (١٤٥).

(٤) أساس البلاغة - للزمخشري (٢٨٧).

(٥) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

الصلف

الصَّلَفُ: «مُجاوزة القَدْر في الظَّرْفِ والبراعةِ، والادعاء فوق ذلك تَكَبرًا. صَلِفَ صَلِفًا، فهو صَلِفٌ من قَومٍ صَلافَى، وقد تَصَلَّف، والأنثى صَلِفَةٌ. . . .

والصَّلَفُ: هو الغُلوُ في الظَّرْفِ، والزيادة على المقدار مع تَكَبُّرٍ»(١).

«والصلف يقال اعتبارًا بميلٍ في عنقه»(٢).

الصعر

«الصَّعَرْ: ميلٌ في الوجه، وقيل: الصَّعَر الميل في الخَدِّ خاصَّةً. . .

وقيل: هو ميلٌ في العنق وانقلابٌ في الوجه إلى أحد الشقين.

وقد صَعَّرَ خَدَّهُ وصاعَرَهُ: أماله من الكِبْرِ.

قال الشاعر المُتَلَمِّسُ:

وكنا إذا الجبارُ صّعَّر خَده   أقمنا له مِن دَرئِهِ فتقوما.

يقول: إذا أمال مُتكبرٌ خَده أذللناه حتى يتقوم مَيله.

وقيل: الصَّعَر: داءٌ يأخذ البعير فيلوي منه عنقه ويميله.

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٤٨٣).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

والصَّعَر: التكبر، والتصعير: إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاونًا من كبر كأنه مُعرض»[١].

وفي التنزيل: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

وقرئ: ولا تُصاعِرْ، قال الفراء: معناهما: الإعراض من الكِبْر.

وقال أبو إسحاق: معناه لا تُعرض عن الناس تكبرًا»[٢].

الباء

وفي «لسان العرب» في مادة «بأي»: «البَأواءُ، يُمَدُّ ويُقْصَرُ وهي العظمة، والبأو مثله. وبأي عليهم يبأى بأوًا: فَخَر.

والبأو: الكِبْر والفخر، وبأيت عليهم أبأي بأيًا: فخرتُ عليهم.

وبأي نفسه: رفعها وفَخَر بها»[٣].

الخيلاء

«الخَالُ، والخَيْلُ، والخُيَلاءُ، وَالخِيَلاءُ، والأَخْيَلُ، والخَيْلَةُ، والمَخيلةُ، كُلُه: الكِبْرُ.

وقد اختال وهو ذو خُيَلاء، وذو خال وذو مَخِيَلةٍ أي: ذو كِبْر».

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٤٤٨).
(٢) «لسان العرب» (٤/ ٢٤٤٨). وانظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).
(٣) «لسان العرب» (١/ ٢٠٢).

«وسميت الخَيلُ خيلًا؛ لاختيالها وهو إعجابها بنفسها مَرَحًا، ومنه يقال اختال الرجل وبه خُيلاء هو الكبر والإعجاب»[١].

وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

فالمختال: المُتَكَبر[٢].

قال أبو إسحاق: المختالَ؛ الصَّلِفُ المتباهي الجهول؛ الذي يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فُقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يُحسن عِشرتهم».

وفي «لسان العرب»: «الخُيَلاءُ والخَيلاءُ بالضم والكسر: الكبرُ والعُجبُ»[٣].

وعرفها الراغب في الذريعة إلى مكارم الشريعة فقال: «الخيلاء: أن يظن بنفسه ما ليس فيها من قولهم خِلتُ، ولتصور المعنى قال حكيمٌ: إعجابُ المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوةٍ، فيظهرُ فرحه بها»[٤].

الزهو

«الزهو: الكِبرُ والتِّيهُ والفَخرُ والعَظَمَة... ورجلٌ مزهو بنفسه؛ أي مُعجَبٌ.

---

(١) «المصباح المنير» (٧١).
(٢) «لسان العرب» (٢/ ١٣٠٥).
(٣) «لسان العرب» (٢/ ١٣٠٥).
(٤) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

وبِفلانٍ زهو: أي كبر، ولا يقال زَها.

وزُهي فلانٌ فهو مَزهوٌ: إذا أُعْجب بنفسه وتَكبَّر.

والزَّهو: الكذب والباطل، والزَّهو: الكبْر، والزَّهو: الظُّلم، والزهو: الاستخفاف»[١].

وقال الراغب: «الزهو: هو الاستخفاف من الفَرح بنفسه»[٢].

ومن الشعر:

قال الأحمرُ النحوي يَهجو العُتبي، والفيضُ بن عبد الحميد:

لنا صاحبٌ مولعٌ بالخِلافْ كَثيرُ الخَطاء قليلُ الصَّواب

ألجُّ لَجاجًا من الخُنْفُساءْ وأزهى إذا ما مَشَى من غُراب[٣]

العزة

«عَزَزتُ القَوْمَ وأعزَزْتُهُم وعَزَّزْتُهم قويتهم وَشدَّدتهم.

وقال ثعلب: في الكلام الفصيح: إذا عَزَّ أخوك فَهُن... وهو مثَلٌ معناه إذا تَعَظَّم أخوك شامخًا عليك فالتزم له الهَوَانَ.

قال الأزهري: المعنى؛ إذا غَلبكَ وقَهَرَك ولم تُقاومهُ فتواضع له...

(١) «لسان العرب» (٣/ ١٨٨٢).
(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة.
(٣) «لسان العرب» (٣/ ١٨٨٢).

وعَزَّهُ يَعُزُّ عَزًا: قهره وغلبه.. وفي التنزيل: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أي: غلبني في الاحتجاج.

وفي المَثل: من عَزَّ بَزَّ، أيْ من غَلَبَ سَلَبَ، والاسم العِزةُ وهي القُوَّة والغَلبةُ.

والعَز؛ عَزةُ: الغَلبة، وعازني فَعزتُه، أي: غالبني فَغَلَبتُه...»[١].

والعَزِيز: من صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنى.

قال الزجاج: هو الممتنِع فلا يَغلبه شيء.

وقال غيره: هو القوي الغالب كُل شيء.

والعِزُ خلاف الذل.

وفي الحديث قال النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة: «**هل تدرين لِم كان قومك رفعوا باب الكعبة؟**»[٢] قالت: لا، قال: تَعَززًا ألا يدخلها إلا من أرادوا؛ أي تكبرًا وتشددًا على الناس وجاء في بعض نسخ مسلم: «تَعَزُّزًا» براء بعد زاي من التعزيز والتوقير.

فإما أن يريد توقير البيت وتعظيمه، أو تعظيم أنفسهم وتَكبَرهُم على الناس.

والعزُ في الأصل: القوة والشدة، والغلبة، والعِزُّ.

والعِزُّ: الرِّفعَةُ والامتناع.

---

(١) «لسان العرب» (٤/٢٩٢٨).

(٢) رواه مسلم.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ أي له العِزةُ والغَلبةُ سبحانه.

وفي التنزيل العزيز: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما العِزَّة في الدنيا ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعها في الدنيا والآخرة بأن يَنْصُرَ في الدنيا ويُغَلِّبَ.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي: جانِبهم غَليظٌ على الكافرين لَينٌ على المؤمنين.

وقال الأزهري: يتذللون للمؤمنين وإن كانوا أعزة، ويتعززون على الكافرين وإن كانوا في شَرف الأحسابِ دونهم»[(١)].

قال الراغب: «العزة: الترفع بنفسه عما يلحقه غضاضة، وأصلها من العزاز، وهي الأرض الصلبة والعزاز: حصوله في عَزار لا يلحقه فيه غضاضة كالمتظلف في كونه في ظلف من الأرض لا يلحقه فيه مذلة.

والعِزة: منزلة شريفة وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدُنيوية، كما أن الكبر نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه، وإنزالها فوق منزلتها...

وقال النبي ﷺ: «**لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه**»[(٢)].

ولما قلنا: قالوا: التكبر على الأغنياء تواضع تنبيهًا أن هذا التكبر

---

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٩٢٥ - ٢٩٢٦).

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

في الحقيقة عز النفس.

ولأجل أن هذا التكبر غير مذموم قال تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. فشرط غير الحق.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعًا فيه ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه»[(١)].

من قصص المتكبرين

قصة قوم نوح:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ١ - ٧].

أخبر تعالى أنه أرسله إلى قومه، رحمة بهم، وإنذارا لهم من عذاب الله الأليم، خوفا من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكا أبديا، ويعذبهم عذابا سرمديا، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نُوح: ٢] أي: واضح النذارة بينها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بيانا

---

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢ - ٣٠٣).

شافيا، فأخبرهم وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [نُوح: ٣] وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالثواب، ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود، وليس المتاع أبدا، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نُوح: ٤] لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكيا لربه ﷻ: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: نفورا عن الحق وإعراضا، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نُوح: ٧] أي: لأجل أن يستجيبوا فإذا استجابوا غفرت لهم فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تماديا على باطلهم، ونفورا عن الحق، ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح ﷺ، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدا عن الحق وبغضا له، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على كفرهم وشرهم ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على الحق ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد[1].

قصة فرعون:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا

(١) تفسير السعدي.

بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٣٦-٤٣].

قال السعدي في تفسير قصة فرعون: «ذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُواْ﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعل على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا وقد علم ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ

مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التمادي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ متجرئا على ربه، ومموها على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ أي: أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري، لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون!، حيث لم يقل (ما لكم من إله غيري) بل تورع وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ وهذا، لأنه عندهم، العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن ثم إلها غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ(هامان) ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ليجعل له لبنا من فخار. ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ أي: بناء ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل

الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاءوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتدي بهم ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله، من ولي ولا نصير.

﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وأتبعناهم، زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة، يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كتاب الله، الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم، وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول، طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي»[١].

قصة قارون:

﴿۞ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ

(١) تفسير السعدي.

لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٩].

قال السعدي في تفسير قصة قارون: «أخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفعل به ونصح ووعظ، فقال: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيه من الأموال العظيمة المطغية ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا، ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى أن مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما

ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها.

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، ﴿وَأَحۡسِن﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.

ف ﴿قَالَ﴾ قارون -رادا لنصيحتهم، كافرا بنعمة ربه-: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبينا أن عطاءه، ليس دليلا على حسن حالة المعطي: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولا وليس ذلك دافعا عنهم من العذاب شيئا، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمرا على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحا بطرا قد أعجبته نفسه، وغره ما أوتيه من الأموال.

﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملأت بزته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

ف ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا، دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها، لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيۡرٌ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يلقى ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثاثه، ومتاعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.

﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه

لقارون، ليس دليلا على خير فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

لما ذكر تعالى، قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾ دارا وقرارا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ أي حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم -وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة- فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة، نصيب، ولا لهم منها نصيب ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمام عدله فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾.

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحله ومكانه، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نهي تحريم. ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

وأما مصير المتكبرين يوم القيامة، قال ﷻ:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٧-٢٩].

قال السعدي رحمه الله في تفسيره: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقى الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَىٰٓ﴾ كنتم تعملون السوء فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم فإنها مثوى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

ومن مصير المتكبرين:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

قال السعدي في تفسيره: «لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زُمَرًاۖ﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتۡ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبۡوَٰبُهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟. ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُواْ﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

ف ﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أبدا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق،

فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي[1].

ومن مصير المتكبرين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٦].

قال السعدي في تفسير الآيات «﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة. ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبها توافق أهواءهم، ويصولون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب، الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ التي يقرنون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾.

---

(١) تفسير السعدي.

أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا، لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك، الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل -وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم، يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب، الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل وتمرحون على عباد الله، بغيا وعدوانا، وظلما، وعصيانا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾.

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل بطبقة من طبقاتها، على قدر عمله. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدا ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مثوى يخزون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها[1].

---

(١) تفسير السعدي.

أسباب معينة على التخلص من الكبر

- التوبة.
- الدعاء.
- إلزام النفس على التواضع وأطرها عليه.
- إنزال الناس منازلهم وذكر محاسنهم.
- الاعتذار عن المساوئ التي قد تظهر من الناس.
- تذكير النفس بأصلها ومصيرها.
- استحضار النصوص التي تذم الكبر والمتكبرين.
- استحضار النصوص التي تحض على التواضع.
- القراءة في سير العلماء والعباد المتواضعين.
- قراءة قصص المتكبرين والتفكر في عاقبة أمرهم.
(فرعون - هامان- قارون).
- مرافقة الصالحين من أهل التواضع.
- الاجتهاد في تحصيل العلم النافع، والعبادة الصحيحة.
- قبول النصيحة وطلبها من الآخرين ممن تعتقد فيهم أنهم يحبون لك الخير.
- التخفف من مظاهر الدنيا وبهرجها.

- القراءة في كتب الزهد والرقائق، والآداب، والأخلاق.
- تفكر في أصل خلقتك وأنك من نطفة من مني يمنى.
- تفكر في مصيرك وأنك مأكولٌ من الدود.
- تفكر أنك ستتحول إلى عفونات ورطوبات يشمئز الناس منها.
- تفكر في عظيم الخطر الذي أنت عليه وأنك مرتكبٌ لكبيرة من الكبائر.
- تفكر في آيات وأحاديث الوعيد للمتكبرين.

فهرس المصادر والمراجع

- أدب الدنيا والدين.
- أساس البلاغة.
- الترغيب والترهيب.
- تفسير السعدي.
- تلبيس إبليس.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة.
- الرعاية.
- الروح - لابن القيم.
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي.
- صحيح ابن حبان.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- صيد الخاطر.
- غذاء الألباب شرح منظومة الأداب.

- لسان العرب.

- مختصر منهاج القاصدين.

- مدارج السالكين.

- مسند أحمد.

- المصباح المنير.

- معجم الطبراني.

- النهاية في غريب الحديث.

فهرس الموضوعات